خرافة الرجل القوي

بومدين بلكبير

خرافة الرجل القوي

منشورات الشهاب

© منشورات الشهاب 2025

www.chihab.com
الهاتف : 07 67 15 023 / الفاكس : 55 75 13 023
ردمك : 978-9947-39-750-3
الإيداع القانوني : أفريل 2025

إلى روح كل من:
لمين مرير،
وصافية كتو،
وعبد الله بوخالفة،
وصالح زايد،
وفاروق أسميرة.

I

بين مدينتين: باريس وشارلُورْوَا..

« إنما أفعله الآن لخير بكثير من كل ما فعلت في الماضي.. وإن
الراحة التي أنا ماض إليها لخير بكثير
من أية راحة عرفتها في حياتي؟».

تشارلز ديكنز

1

كثيرا ما كنت أستغرب غضَّ الشرطة الطَرف عن المتاجرين بالسموم! فكلما كنت أقطع شوارع مدينة شَارْلُورْوَا بسيارتي أو راجلا، إلا ولمحت بعض الشبان الأفارقة والعرب ومن جنسيات أخرى موزعين على جنبات الطرق، أو يقفون في زوايا البنايات، يعرضون بضاعتهم من الكوكايين والهروين دون أن يتعرض لهم أحد. وبحكم أنني أقضي من يوم إلى ثلاثة أيام من كل أسبوع في قسم الشركة بشارلوروا، حسب ما تقتضيه ظروف العمل، وبقية أيامي موزعة على مشاريع شركتنا في فرنسا أو هولندا أو ألمانيا، لم أكن أجد الكثير من الوقت نهارا كي أفهم ما يجري هنا.

وقد أخبرني ذات يوم عمي عُثمان الشَّعْبي وهو عامل الصيانة عندنا في الشركة، قدم إلى بلجيكا قبل عشرين سنة من نواحي مدينة الصويرة المغربية، لما أخذنا الحديث إلى هذا الموضوع، أن شرطة المدينة، من فترة لأخرى، تكثِّف حملاتها ضد شبكات ترويج المخدرات، لكنّها سرعان ما تتوقف عن ملاحقة هؤلاء الشباب الذين تستخدمهم تلك العصابات.

على كُلٍ، بقي هذا الأمر غامضا بالنسبة لي، ولم أجد مبررا واحدا مقنعا لسلوك الشرطة المتسامح مع هؤلاء، سوى أن يكون هناك تواطؤا من جهة ما. هل من المعقول أن يكون صمت الشرطة وغضها الطرف عن تجارة هؤلاء الشباب للممنوعات مقابل توظيفهم في

جمع المعلومات واستقصاء الأخبار؟! خصوصا وأن المدينة مليئة بالمهاجرين المغاربة والأفارقة والأتراك والإيطاليين وغيرهم.

كلما فكرت في هذا الموضوع زاد استغرابي أكثر، واستبدت بي الحيرة. صراحةً لم تشف غليلي إجابات عمي عثمان، حتى عندما أخبرني بأن الشرطة كثيرا ما تضيِّق عليهم الخناق، ما يدفعهم للالتجاء للمراهقين وتجنيد الطلبة الثانويين، خصوصا الفتيات البلجيكيات، لترويج البضاعة في الأماكن العامة وفي مواقف الحافلات، وذلك لعدم لفت الانتباه.

ولأنّني عجزت عن المسك بخيوط الحقيقة، وباءت كل محاولاتي الذهنية في فك شِفْرَة هذه القضية بالفشل، تركت التفكير في هذا الموضوع. ومع مرور الوقت تقبلت الأمر، وصار بالنسبة لي مألوفا وعاديا. لأن هؤلاء الشباب المهاجرين، وهم يتاجرون بالهروين والكوكايين أمام الملأ، أضحوا من ديكور المدينة ومن أهم معالمها المؤثثة لأحيائها وشوارعها.

اللّيلة عليَّ العودة إلى باريس، وإلا وجدت نور غاضبة مني. فكثيرا ما كنت أنسى عيد زواجنا، وكثيرا ما كانت تؤنبي على إهمالي وغفلتي، وتصر على أن لا تكلمني لأيام متتالية، أخاف من تعكر مزاجها، فهذه الحالة لا تنتهي عندها بسهولة، فعندما نتشاجر أو يسود بيننا بعض التوتر، أبذل جهدا كبيرا في إرضائها.

الطريق من شارلوروا إلى باريس يتطلب أكثر من أربع ساعات، وعلى الرغم من أنني متعب، اليوم، بعض الشيء من تراكم الأعمال في مكتبي وفي ورشة المشروع، لكن ما بالبيد حيلة. كلما تَحُلُّ ذكرى زواجنا أنا ونور إلا وأتذكر أول يوم تعارفنا فيه.

لما كانت نور بصدد تغيير المسكن المشترك، بعدما سئمت من عادات وسلوكيات الفتيات العربيات والرومانيات والفرنسيات غير المباليات اللواتي يتقاسمن معها دفع ثمن إيجار الغرفة شهريا.

فمباشرة بعد قبولها في قسم الترجمة في إذاعة مونت كارلو الدولية من قبل المحررة فيوليت خوري، قررت الإقامة بمفردها. أذكر ذلك اليوم جيدا، وكلما أتذكره لا أكاد أتوقف عن الضحك!

كنت حينها مازلت أشتغل في وكالة عقارية للبناء والكراء تقع في سان ميشال في الدائرة الخامسة في باريس قرب محطة الميترو. وبينما كنت منهمكا في مراجعة وتعديل تصاميم مشروع جديد أخذ من وقتي أشهرا ولياليَ بأكملها، كي أعرضه على مدير الوكالة في مساء ذلك اليوم، دخلت نور إلى مكتبي، لا أدري من أرسلها حينها، أم أن كل الموظفين خرجوا لتناول الغداء؟!

كنت في صراع مع الزمن، غارقا في تصاميمي تلك، لم أسمع حديثها، ولم أعرها أدنى اهتمام. فقط أشرت لها بيدي في اتجاه مكتب موظفة الاستقبال في القاعة المقابلة، وبكلمات مقتضبة أفهمتها أن تنتظر ريثما تعود الموظفة كي تهتم بها. كان هذا كافيا كي تستشيط غضبا، وتنفجر في وجهي.

علمت فيما بعد، لما اعتذرت مني، أنها كانت ذلك اليوم جد مرهقة، فقد أمضت أيام الأسبوع الأخير في البحث والتّنقّل من وكالة إلى أخرى للعثور على سكن ملائم لها.

حقيقة، الأمر غريب؛ دوما ما كنت أسمع عن أناس يتقاربون بعد خصومات أو سوء فهم! وها هو الأمر ذاته يحدث معي! استغربت في البداية اسم نور العائلي كُومَانِيسْكُو! فكيف لمهاجرة من أصول جزائرية أن تحمل لقب غربي؟!

لما توطدت علاقتي مع نور، أخبرتني أنّها من أب روماني وأم جزائرية، رفض والدها مغادرة الجزائر بعد انتهاء عقد عمله. اضطر للعمل سنوات عديدة في مدارس التكوين الخاصة.

كانت نور متأثرة جدا وهي تحكي لي عن معاناة والدها ألكسندرو كومانيسكو، لا أظن أنّها ذكرته يوما ما في حضوري ولم تبك. أخبرتني بدموع منهمرة:

– استغله أصحاب تلك المدارس الخاصة بطريقة متوحشة وبشعة جدًا، بسبب إقامته غير الشرعية. فغالبًا ما كان يعود إلى البيت في أوقات متأخرة، يكتفي بتقبيلي على رأسي وأنا أغط في نوم عميق. كان يبذل جهدًا مضاعفًا في تلك المدارس مقارنة بعمله السابق في الجامعة، فقد كان يُدرِّس ويُدَرب الموظفين، وبالإضافة إلى ذلك يعد دراسات لصالح بعض الشركات.

بينما كانت تلك المدارس تتقاضى أموالا كبيرة جراء أتعاب أبي، كانوا يرمون له بالنزر القليل من المال. هذا الفتات لم يكن كافيا لتلبية حاجاتنا الضرورية.

في الأخير استسلم أبي، كان منكسرًا وحزينًا جدًا عندما أعلمنا بقراره المغادرة إلى بوخارست، على أن نبقى أنا وأمي في بيتنا في قسنطينة. ما جعله يطمئن بعض الشيء علينا، على الرغم من أنّ القرار الذي اتخذه، مكرهًا، كان فوق طاقة احتماله؛ أنّه تركنا بالقرب من أخوالي.

لم تصمد نور بدورها، فبعد سنوات من مغادرة والدها اضطرت للّحاق به، قبل حتى أن تكمل دراستها الجامعية. أخبرتني كذلك أنّها سافرت إلى رومانيا قبل نهاية العام الدراسي الثالث لها في كلية الإعلام بقسنطينة، بسبب المضايقات التي تضاعفت بعد دخولها للجامعة.

فقد باتت مخنوقة من تسلط ومضايقات خالها بلقاسم بولقدام. سلوكيات خالها تغيرت بعد وفاة جدتها الهذبة بن جلول، وأصبح كالرقيب على أنفاسها وحركاتها، يعاتبها عندما تخرج من البيت، يسألها عن سبب خروجها وعن سبب تأخرها، يدقق في برنامجها الزمني في الجامعة، ولا يفتأ أن يؤنبها صباح مساء عن عدم ستر جسدها بارتداء الحجاب المفروض شرعًا. أمها المسكينة لا تستطيع أن تحرك ساكنا، وجدتها التي كانت توفر لها الحماية غادرت إلى الدار الأخرى.

أما خالتها دلولة، فكانت كلّما تزورهم في البيت تبحلق فيها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، تمعن النظر فيها جيدًا، وتقول لها «إنّك أصبحت عروسة ويجب أن نفرح بك في أقرب الآجال». ثم لا تَتَوَرَّع من التحدث عن تزويجها بابنها لخضر المُجَنَّد في مدينة تندوف الجنوبية. لا تملُّ من الحديث والتخطيط لهذا الزواج غير المتكافئ.

حينما وطأت أقدامها بوخارست، هالها أنّها وجدت والدها على فراش المرض، لم يخبرها بتدهور وضعه الصحي لما كانت تتصل به من قسنطينة كي تطمئن عنه بين الفينة والأخرى. يسهر على راحته بالتناوب كل من عمتيها فلورنتينا وإليزابيتا.

عرفت، فيما بعد؛ أن والدها تزوج من امرأة رومانية تصغره كثيرا، اسمها دينيسيا فيزان، غادرته بعدما اشتد مرضه، ومن حينها لم يظهر لها أيّ أثر، ولم يسمع عنها أيّ خبر. قبل أن تكمل نور دراستها في جامعة بوخارست، توفي والدها ألكسندرو. بقيت في بيت والدها مع عمتها إليزابيتا، حاولت في تلك الفترة أن تجد عملا يناسبها، الوضع الاقتصادي في رومانيا هش، والعمل غير متوفر للجميع. عانت كثيرا من البطالة والبقاء في البيت طيلة النهار مع عمتها العجوز.

كان انضمام رومانيا للاتحاد الأوروبي بمثابة فرصة لنور للذهاب إلى فرنسا دون الحاجة إلى إجراءات التأشيرة المعقدة. وقد تم قبول طلبها فيما بعد لاستكمال التسجيل في دراسات الماستر في جامعة السربون العريقة، وكان ذلك بالنسبة لها فرصة كبيرة أخرى لم تكن تتوقع أن يمنحها القدر لها ذات يوم. وقد اضطرت لتوفير مستحقات الدراسة وتسديد مصاريف السكن والمعيشة، للعمل مساء في مطعم لا يبعد كثيرا عن الحي الذي تقيم فيه.

بعد أن استعدت نشاطي بدش ساخن، أغلقت باب المكتب والباب الخارجي، وطفقت خارجًا. فغالبًا ما كنت آخر مَن يخرج من

المكتب، وفي بعض الأحيان كنت أدخل مكتبي ليلًا بسبب متابعة مشاريع شركتنا الموزعة على ورشات في مدن أوروبية عديدة.

شغَّلت محرك السيارة، وما هي إلّا لحظات حتى انطلقت بالغولف الجديدة. في حقيقة الأمر مذ جلبت لي إدارة الشركة هذه السيارة، تيسرت تنقلاتي وبتُّ قادرًا على السفر في أي وقت أشاء. كما تتحمل الشركة كذلك تكلفة البنزين، وهو ما أراحني كثيرًا.

الطريق شبه خالية، والغولف تنهب الأرض نهبًا، وصوت أزنافور العذب يتدفق من راديو السيارة وينفذ إلى أعماقي المظلمة، بشذاه يزيح ستار العتمة عن روحي ويضفي أشعة البهجة على نفسي المتعبة. أستمتع كثيرا في هذا الجو، ولا أشعر إطلاقا بوطأة الطريق ووعثاء السفر. سرحت في مغامراتي في الجامعة مع صديقاي في كلية الهندسة إبراهيم التارقي المالي وأحمد بابا الموريتاني. وقد استمرت صداقتنا لما بعد الجامعة، ففي باريس لا أصدقائي الجزائريون يعتبرونني جزائريًا صِرْفًا بسبب أمي الفرنسية الأصل وما يتردد عن موقف أبي من الثورة التحريرية، ولا أصدقائي الفرنسيون يعتبرونني فرنسيًا أصيلًا بسبب عرق أبي الجزائري الأصل. غالبا ما كنت أجد نفسي أكثر قربًا من أصدقائي من جنسيات عربية أو افريقية أو لاتينية.

كثيرا ما كنا، أنا وإبراهيم، نتهكم على أحمد بعد أن يصبغ شعره بالأسود القاتم، الذي اشتعل شيبا في سنواتنا الأخيرة في الجامعة، كان يبلغ به الغضب منتهاه من تصرفنا ذاك، ويغادرنا متذمرا وهو يتمم، وينعتنا بأشنع النعوت. كما كنّا، أنا وأحمد، نسقط على قفوينا من شدة الضحك على اختفاء إبراهيم الذي كان بمثابة اللغز، بعدما استعار مني مبلغ 35 يورو من أجل اقتناء كتاب عن تاريخ الرجال الزرق، وجده معروضا على رفوف متاجر الفناك، على أن يرجعه لي في نهاية الأسبوع. مذ ذاك اليوم لم يظهر إبراهيم، ولم يتصل، ولم يُعد لي ثمن الكتاب!

من عادتي التوقف في محطات الاستراحة مرة أو مرتين على الأقل، للتزوّد بالوقود أو الاستراحة وكسر جوع بطني، لكن هذه المرة كنت أسوق دون انقطاع!

تستغرقني الذكريات وتأخذني بعيدا، إلى رائحة أبي، إلى صدى صوته وهو يؤنبني عن أخطائي الصغيرة والكبيرة، إلى ملامح وجهه حينما يغضب أو يفرح، إلى عمق عينيه العسليتين حيث يدفن وجعه الذي مات معه.

أبي الذي عاش فيه وجع بلده بعدما غادره مضطرًا مع قوافل الكولون، زاره مرة أو مرتين بعد الاستقلال، شوقه لوطنه اشتعل أكثر بعد اللقاء كما كانت تخبره أمي.

عاش أبي في برد الغربة محرومًا من دفء وطنه، ورافقه هذا الشعور إلى حفرة قبره الرطبة. دفع أبي ثمن خيار لم يكن له يد فيه، دفع ثمنا باهظًا كلفه الابتعاد عن الأرض التي لم يحب أرضًا غيرها. كلّما كان أبي يسرد على مسامعي تلك القصة البشعة، كان خيالي يذهب بي بعيدًا، إلى إعادة تشكيل تلك المشاهد والصور المفزعة.

تتزاحم مجددًا في ذهني المشوّش الصور والمشاهد، الظلام يلف المكان، القمر في تلك الليلة الظلماء توارى عن الظهور، الطرق على الباب لم يتوقف، الطفل الذي كانه أبي يفتح الباب. تفاجأ برجال مدججين بالأسلحة يطلبون منه أن ينادي على أبيه؛ جدي الحاج بلباي زهري.

أدخلهم جدي إلى دار الضياف، ثم اتجه إلى السَّدَة لجلب صرّة المال، وطلب من جدتي تركية بن قانة تحضير العشاء، أرى صورتها وهي تسابق الزمن بين الطبخ في القِدْرِ وبين طهي خبز الكسرة على طاجين الطين.

منحهم جدي مبلغ الاشتراك غير منقوص، وأحضر لهم صينية الطعام، طلبوا من جدي الخروج للحراسة، وانهمكوا في الأكل بشراهة.

كان أبي مذعورا ليلتها، وهو يراهم يدخلون إلى حُوشْ الدار وجدي ليس معهم، أدخلوا أبي وإخوته وأخواته إلى غرفة وأغلقوا عليهم الباب، وبقى أربعة منهم معهم يحرسونهم، والخامس بقي خارج الغرفة. كان أبي يتفرس فيهم ويحدث نفسه، «إنّهم مثلنا ملامحهم عربية، ويتكلمون بالعربية، لو كانوا فرنسيين لأتوا نهارًا، لقد اعتدنا مضايقات الجنود الفرنسيين في النهار، واليوم نتعرض لمضيقات أخرى ليلا، ومن بني جلدتنا!».

بعد لحظات سمع أبي صرخة مدوية من أمه، صرخة قهر وخذلان، صرخة مزقت حشاه الصغير. لما غادر الجنود الدار وابتعدوا في اتجاه الهضبة التي تقود إلى طريق شوكية تفضي بدورها إلى الحقول والأجمات ومنها إلى الغابة الجبلية، لمح أبي جدي بلباي أمام عتبة الباب وعلى وجهه رضوض وكدمات، والدماء تندلق من أنفه، والدموع تتدفق من مقلتيه في صمت، وهو منكمش ويديه على رأسه. في حين كانت أمه تركية في غرفتها وقُنْدُورَتها ممزقة من الأعلى، وشعرها غير منسق ونواحها يخترق القلوب كخنجر صدئ.

لحظة عرف أبي -فيما بعد- هوية هؤلاء الرجال، زاد حقده أكثر. وأصبح ينفر ويشتد حنقه من كلّ شيء يرمز للثورة والكفاح ضد المستعمر، وكان يمتعض ويهيج ساخطًا كلّما سمع كلمة ثوار أحرار ومجاهدين أطهار.

وها هي صورة جدي بلباي الذي لم يسبق أن رأيته، تتشكل أمامي مما بقي في ذاكرتي من مخزون روايات والدي، جدي الرجل القوي بقامته الفارعة، ومنكبيه العريضين، ووجنتيه المنتفختين، وبلباسه العربي، وشاشه الأبيض كالتاج فوق رأسه. الجميع كان يهابه، ويحترمه في الوقت ذاته. جدي الميسور الحال، بأراضيه وممتلكاته، والفلاحين الخَمَّاسَة الذين يشتغلون لصالحه.

لقد كان الجميع يستشيره ويأخذ برأيه، والكل يخاف لحظة غضبه وانقلاب حاله. اعتاد أن يتغلب على كل الصعاب والأزمات الظرفية

التي واجهته أو واجهت عائلتنا. يراها تبدأ عظيمة وتنتهي صغيرة، لكن ما حدث تلك الليلة كان مختلفًا جدًا، وعظيمًا جدًا، وبشعًا جدًا، وفعلًا بدون رحمة وتصرفًا يفتقد لأدنى إنسانية. كان فعلًا خسيسًا لا يقوى أحد على تحمله، بدأ جرحًا غائرًا وهائلًا، وبقي يتسع ويتسع أكثر ويزداد عظمة.

جدي الشامخ الذي تخر العيون لنظراته، لم يعد يقوى على لقاء الناس ومواجهة نظراتهم، اختار العزلة واختلى بنفسه في دار الضّياف، نادرًا ما كان يخرج منها، مطأطئ الرأس كأنّه مقسوم الظهر، ضاعت ملامح قوته وهيبته، لا يكاد يرفع بصره، هزل جسده وغادر الدم وجهه. كانت عمتي تضع له الطعام على رف النافذة التي تطل على حوش الدار، كانت الصينية ترجع وأغلب صحونها نصف ممتلئة.

بعد ثلاثة عشر يوما نهض الجميع على صرخة عمتي الكبرى، التي فجعت به يتدلى من غصن شجرة البرتقال، التي وضعت بذرتها أمه حدة بنت علي بن يامينة بجانب الدار ابتهاجا بلحظة مولده في عام 1889. اختار أن يضع حدا لعار وخذلان الإخوة الأعداء. أن ينتحر شنقا لأنه لم يقو على الاستمرار أكثر، مات لحظتها في تلك الليلة الظلماء، لحظة طُعنت رجولته وانتهك شرفه. فقط احتاج أقل من أسبوعين كي يعلن عن مغادرته لهذا العالم الذي فقد إنسانيته، هذا العالم الممعن في التوحش.

وهربا من أسئلة الناس الحارقة، ونظراتهم القاتلة، قررت عائلة أبي الانتقال إلى مكان جديد للإقامة به.

على صوت هدير محرك الطائرة، وهي تعبر على الجسر المنصوب أعلى الطريق الذي أقطعه بسيارتي في منظر لا تجد له مثيلًا في مدن أخرى، أفقت من سرحاني، ومن استذكار صور الناس المتتابعة، وصدى أصواتهم، وتلاشت من أمام عيني مشاهد الأماكن المتخيلة التي لم تطأها قدماي من قبل.

بعد أن تجاوزت مطار شارل دوغول، الخيم ذاتها والبيوت العشوائية مكدسة في هضبة على شمالي. كثيرا ما كنت أنفر من رؤية هذا المنظر الذي بات يشوه جمال المدينة، هؤلاء الغجر الذين لا يتورعون عن السكن كيفما شاؤوا، وعلى امتهان التسول حتى في أشد المناطق حساسية، بأم عيني شاهدتهم، مرارًا وتكرارًا، يتسوّلون داخل مطار أُورْلي الدولي، الذي يذرعه رجال الشرطة والعسكر المدججون بالأسلحة ذهابًا وإيابًا، ولا أحد منهم أوقفهم أو منعهم.

وجدت نور في انتظاري، تظاهرت بأن كل شيء عادي وأن لا شيءَ استثنائيًّا هذا اليوم. كانت منفعلة من عدم اهتمامي، لم تتكلم كثيرًا، بقدر ما كانت تجس نبضي ويبدو عليها الانفعال من عدم مبالاتي، وأظنّها كانت قاب قوسين أو أدني من أن يكفهر وجهها ويحتدم غيظها. لما أخبرتها بأن تلبس كي نخرج للعشاء، كادت الدنيا أن لا تسعها من الفرحة التي غمرت قلبها على حين غرة، ثم احتضنتني بشدة، شعرت ببلل دموعها على كتفي. المرأة قد تصنع حروبًا دموية بسبب أشياء تافهة، كما قد تعيش أجمل لحظات عمرها سعادة بسبب أشياء بسيطة غير متكلفة.

أخذتها في البداية إلى مطعم راق يعمل فيه أخ صديقي أحمد، كانت مفاجأتها كبيرة بأطباقه التقليدية وفن الطبخ الفاخر، وجو المرح الذي استحضرنا فيه ذكرياتنا الجميلة. أخبرتني نور أن طعم أطباق الأسماك والحساء وثمار البحر وصدفات المحار شهية ولذيذة جدًا، كما أنها انبهرت لمذاق الخضار بزيت الزيتون، ولبراعة التتبيل، والتقطيع، والطهو. وأعجبتها مثلجات البندق وصلصة الجوز كثيرا، فكانت تأكل وتردد:

– يا إلهي.. يا إلهي لها طعم استثنائي، يا إلهي الطبخ في باريس هو أسلوب حياة أولا وقبل كل شيء.

بعد القهوة السادة خرجنا، كانت نور مغتبطة جدًا، على وشك أن تقفز من شدة الفرح، وأن تصرخ بأعلى صوتها، وأن تحلق عاليًا

بأجنحة السعادة. فلم تكن تتوقع أن أتذكر هذا اليوم، وأن أُحَضِّر له، لأنّها معتادة على طيشي وقلة اهتمامي بهكذا مناسبات.

أرادت أن تكتشف أين الوجهة القادمة، لم أخبرها على الرغم من إلحاحها وإصرارها، صممت على الصمت حتى أرفع هرمون شوقها وفضولها إلى أقصى مستوى ممكن.

لم تفهم سبب ذهابنا إلى جسر الفنون، شبكت يدي بيدها وأخذتها نحو السياج المثخن بأقفال العشاق، بصعوبة عثرت على قفلنا وسط ألاف الأقفال، أخبرتها أنّني علقته قبل أيّام ورميت المفتاح في نهر السين. ثم أردفت قائلًا:

– مادام هذا النهر يجري متدفقًا فسيبقى حبنا خالدا منهمرًا كهذا النهر العظيم.

2

هذه المرة، وعلى غير العادة، سافرت من باريس إلى شارلوروا على مضض، أحسست أنّني بحاجة للمزيد من الراحة. على الرغم من أنّني تعوّدت على حياة التنقل والسفر والتعب، فالوقت الذي أقضيه في السيارة يتجاوز الوقت الذي أقضيه في بيتي، فما بالك إذا أضفت له الوقت الذي أقضيه بين ورشاتنا وبين مكتبي. حتى أنّني كثيرًا ما كنت اضطر لأخذ حاسوبي معي إلى البيت، كي أنجز بعض التصميمات، أو أعدّلها، أو أدقق في مراعاتها المعاييرَ المعمول بها، لأنّ في المشاريع التي تنفذها شركتنا لا مجال لأيّ خطأ أو انحراف صغير. كما أنّني لن أترك أي فرصة سانحة لمارسيل ماسان الحاقد وابنه باتريك الأبله اللّذين يتربصان بي الدوائر، فهما يتصيدان أي زلّة أو هفوة مني كي يوظفانها ضدي.

قبل أن أتنقل لتفقد موقع ورشة مشروعنا في وسط شارلورا، قصدت مكتبي في موقع الشركة. كان أوّل من صادفته في باحة الشركة هو العم عثمان، وبينما كنت بصدد فتح باب مكتبي، كانت ديلاك أوزكارا مساعدة مسؤول التخزين التي تعود أصولها إلى مدينة اسكشير التركية تتحدث بفزع مع نتالي إيڤ موظفة قسم الشراء وهي أصيلة مدينة لياج البلجيكية. ليس من عادتي استراق السمع أو التصنت على الآخرين، لكن ظننت أن مكروهًا ما أصابها، وبدافع حسن علاقتي بها، وما أكنّه لها في نفسي من محبة، وقفت أمام باب مكتبي برهة زمن.

من تفاصيل الكلام الذي وصلني، فهمت أنّ هناك جريمة قتل وقعت قبل البارحة، ارتكبها شباب أتراك، راح ضحيتها شاب عربي يبيع الكوكايين والهروين، أصرّ على مواصلة توريط مراهقين أتراك في شراك سمومه، دون أن يأبه للتحذيرات المتكررة التي وصلته من العائلات التركية. والشرطة تملأ المكان، وتبحث عن المتورطين، بعد أن وصلتها معلومات من بعض تجار الممنوعات عن متهمين بملامح تركية.

لم اهتم لكلام ديلاك، الحمد لله أنّني اطمأننت على أنّها بخير وأن لا مكروه أصابها. أما الجرائم فهي أمر متوقع الحدوث من حين لآخر، خصوصًا في المناخات التي تنتشر فيها شبكات المخدرات وبيع الأسلحة فهي تكون بؤرة مناسبة لانتشار العنف، ومنبعًا يغذي جلّ الأمراض والانحرافات الاجتماعية المختلفة، ولا أظن أنّ هناك من يستطيع إثبات العكس مهما كانت حججه التي سيسوقها في المجادلة.كما أعتقد أن بقاء الشرطة في موقع المتفرج طيلة سنوات دون أن تحرك ساكنًا في ردع تجار السموم، هو سبب كلّ بلاء وكل عنف وإجرام حدث أو سيحدث لاحقًا. فكيف لمخبري الشرطة السكوت عن هؤلاء دون محاصرتهم وتضييق الخناق عن تجارتهم!؟ أيعقل أن يحدث هذا التقاعس والصمت الآثم في بلد أوروبي محترم وعريق كبلجيكا!؟

كان يجب علي أن أمرّ بورشة مشروعنا في وسط شارلوروا قبل أن ينتصف النهار، من أجل متابعة مدى تقدم المشروع والتدقيق في مطابقة بعض الجزئيات للمعايير، لأن إدارة الشركة تنتظر مني تقريرًا مفصلًا قبل اجتماع الساعة الثانية والربع. ولم انتبه أنّني تأخرت كثيرًا بسبب انغماسي في تعديل بعض التفاصيل المعقدة، والمتعلقة بتصميم مشروعنا الجديد في هولندا.

خرجت مهرولا من مكتبي في خط سير متواصل إلى سيارتي، لم أرضخ بالتوقف لكل من صادفتهم في الرواق، فقد استعجلتني هِيلِين

جانسن للنظر في رزمة الأوراق التي كانت تحضنها بكلتا يديها، ولما اعتذرت لها بكلمات مقتضبة وأنا مواصل سيري، فلا وقت لديّ للإطناب والشرح، لاحظت بعض ملامح الامتعاض والعبوس اعترت وجهها. أما باتريك الذي صادفته خارجًا من مكتبه لم أبالِ بثرثرته التافهة ومشاركته الحديث، سوى الاكتفاء بمبادلته ابتسامة مصطنعة بذلت جهدًا عظيمًا في تصنعها، فكلّما يراني يحاول التظاهر بأنّه يكن لي كل الود. ثقافة متأصلة فيهم، لما يقابلونك يبتسمون في وجهك، وبمجرد أن تلتفت يتكلمون عنك بالسوء في ظهرك!

وصلت إلى موقع مشروعنا بعد عشرين دقيقة من السياقة، وهو الزمن الذي لم أستطع تحطيمه في كل محاولاتي السابقة أثناء عبوري نفس المسافة. ركنت سيارتي قرب البناية المحاذية للمشروع، ونزلت مهرولا كالعادة وفي يدي القبعة البلاستيكية الصلبة. لما تجاوزت البوابة الرئيسية لبست القبعة أو الخوذة الحربية كما تصفها نتالي متهكمة. اجتهدت أن أكمل عملي في أقرب وقت ممكن، كي ألحق إلى المكتب من أجل تحرير التقرير النهائي وإرساله لإدارة الشركة دون أدنى تأخر، في الحقيقة أريد أن أتفادى الوقوع في أي تقصير، كي أتجنب كل الملاحظات السلبية المحتمل أن تأتي من عند رؤسائي في العمل.

بعد أن فرغت سارعت إلى سيارتي وقد نال مني الإرهاق، حتى أنّني لم أنتبه لنزع القبعة، فطيلة الطريق كنت أقود وهي على رأسي. كان جلّ تركيزي منصبًا على تحدي الزمن المتسارع، فمنذ أن أنهض من فراشي في الصباح الباكر إلى أن أخلد للنوم ليلًا، وأنا في صراع دائم ودام مع الوقت، لذلك تجدني اضطر في الكثير من الأحيان إلى البقاء فيً مكتبي بعد انتهاء ساعات العمل، أو العودة إليه ليلا، أو إتمام أعمالي المتبقية في البيت.

لحظة أكملت كتابة التقرير قمت بمراجعته، وبعد أن فرغت أرسلته بالإيميل إلى القسم المعني في إدارة الشركة، ثم ارتميت على

الكرسي الدوار في مكتبي وتنفست الصعداء. لم يمض وقت طويل حتى قصدت قاعة الاجتماعات، بالرغم من أنّني لا أحبذ كثيرًا الجلوس طويلا على طاولات الاجتماعات المستديرة، وأنفعل من الجدل الدائر بين الموظفين والمدراء، في حقيقة الأمر ينتابني شعور سيء للغاية جراء ذلك، خصوصا مع حضور الأشخاص الذين يكونون في الغالب أكثر جدلًا.

لاحظت مارسيل قادما وهو يتأبط جريدة محلية، ويصوب نظراته الجامدة نحوي. شعرت ببعض التوتر. لم يكتف بالنظر فقط، فها هو قادم على غير العادة للجلوس بجنبي! على الرغم من استغرابي إلا أنّني تظاهرت بعدم المبالاة.

بعد أن جلس بمحاذاتي ارتسمت على وجهه ابتسامة صفراء ماكرة، وفجأة رمى الجريدة التي كان يدسها تحت إبطه أمامي. لم أفهم الغاية من سلوكه، وقبل أن أستفسره أردف قائلا:

– ماذا يأتينا من العرب غير العنف والإجرام!؟ فهؤلاء المهاجرون نمنحهم الحرية والحقوق التي لا يحلمون بها في بلدانهم البائسة، ثم يكافئوننا بالتفجيرات الإرهابية أو بالانحراف والإجرام!

كنت أنظر بذهول في وجه مارسيل المنفجر حقدًا وكراهية، وأرقب وجوه الحاضرين وكأنّني شبه غائب عن الوعي، ويدي تلمس في أكمام قميصي، أكاد أن افقد رشدي؛ فكيف لي أن أهدِّئ من غضبي وانفعالاتي كي لا أهيج في وجه هذا الحاقد؟ من الصعب أو من سابع المستحيلات أن تحافظ على رباطة جأشك من أجل التحلي بالحكمة في هكذا مواقف. لكنّه واصل استفزازي؛ اذ وضع إصبع السبابة على عنوان مكتوب بالبنط العريض « التعرف على هوية قاتلي مروِّج الكوكايين سليم زهري». ثم أضاف قائلًا:

– إنه يحمل نفس لقبك العائلي، فلا أستبعد أن يكون قريبك. إنّكم من طينة واحدة، سواء تولدون في بلدانكم أو في بلداننا، لا

فارق. العنف والإجرام والشر في جيناتكم حتى ولو تناسلتم معنا، فجيناتكم أقوى.

طلب المدير المُفَوَّض ديسي هوسمان بكل صرامة من مارسيل الخروج حالاً من قاعة الاجتماعات، لم يجد الحاقد من منفذ آخر سوى الرضوخ للأمر الواقع. أما أنا فمن شدّة احتدام غيظي كدت أن أنفجر ساخطًا في وجه مرسيل الحاقد أمام الجميع، أن أعري إنسانيتهم الزائفة، ونفاقهم الاجتماعي. لكن لست أدري كيف عدلت عن هذه الفكرة، وأمسكت بجمرة غضبي في راحة يدي ولم أحرقهم جميعا بنارها!؟

استأذنت السيد ديسي من أجل أن يسمح لي بالانسحاب، وأنا جالس على عجيزتي على حافة الكرسي وقد أحنيت ركبتي ووازنت يدي على حافة المقعد في وضعية النهوض. لكنه أصر على ضرورة أن أحضر هذا الاجتماع على وجه الخصوص، بحجة أن غيابي سيتسبب في تأجيل الاجتماع مرة أخرى، وهو أمر غير ممكن الحدوث. لم تقنعني ذريعته، لكن وجدت نفسي محرجًا ولا مهرب أمامي سوى الموافقة مكرهًا.

أكملت الاجتماع كأني جالس على الجمر. دسست تلك الجريدة في حافظة أوراقي وخرجت. قرأت التحقيق الصحفي المنشور حرفاً بحرف، وكلمة بكلمة، وجملة بجملة داخل سيارتي، بعد أن أكملته شغلت محرك السيارة وانطلقت مباشرة قاصدًا مركز شرطة المدينة. لا أدري لِم قررت ذلك؟ لكن ما اعرفه أني أمسيت كالأعمى من فرط انفعالي وغيظي المحتدم.

لما وصلت استقبلتني شرطية بدينة ببشاشة، بددت بعضًا من سحب غضبي الكثيفة، ومن خلال ملامح وجهها وحركات جسدها وصلني مدى تفهمها واهتمامها. وهو الاستنتاج الذي تأكد لي بعد أن تحملت أسئلتي واستفساراتي المتعددة وغير المنتهية عن هذا الذي يحمل نفس لقب عائلتي. لست معتادًا على دخول مراكز الشرطة،

لكن استفزاز مارسيل اليوم زاد من غيظي وحرك من فضولي النائم، فمن عادتي أن لا أهتم بأمور الناس، ولا يهمني إطلاقا أن أبحث عن أي شخص، حتى ولو كان مشتركا معي في نفس اسم العائلة.

فهمت من كلامها أن الضحية اسمه الكامل سليم زهري وهو جزائري الأصل، ولا معلومات أخرى توصلت إليها الشرطة بخصوصه، لأنها عثرت عليه جثة هامدة. حيث أكددت لي الشرطية تفاصيل العثور عليه قائلةً:

– بعد اتصال عجوز أخبرنا أنّه كان يتجول هو وكلبه في الصباح الباكر قبل شروق الشمس بحديقة عمومية، وفجأة تصلب كلبه وبدأ يحدق صوب مجموعة من الشجيرات، ولم يتوقف عن النباح، توجه العجوز إلى ذلك المكان فكانت صدمته غير متوقعة باكتشاف جثة حديثة. ولما فتشنا الجثة لم نحصل على أي وثيقة للضحية، وبعد تحرياتنا عرفنا اسمه الكامل وبلده فقط. والتحقيقات مازالت متواصلة إلى حد الساعة. علمًا أننا اكتشفنا من خلال كاميرات المراقبة القريبة من مكان وقوع الجريمة هوية المتهمين الثلاثة. وقد قبضنا على واحد منهم.

خرجت من مركز الشرطة أكثر حيرة من ذي قبل، ركبت سيارتي وانطلقت بها، لا أدري إلي أي وجهة كنت أقصد. انتبهت أن الليل أرخى سدوله، فقد كنت أقود بدون بوصلة، خبْطَ عشواءَ.

تلك اللّيلة كنت منهكًا ومتهالك القوى، ولا أقوى حتى على الوقوف، قدماي لا تحملاني، كنت بالكاد أتحرك. لم يدخل الطعام فمي من شدة التوتر، وفكري لم يتوقف، كنت مشغول البال كالتائه في صحراء يبحث عن آثار تدله على الطريق. ما فعلته هو أني قرأت الجريدة مرة أخرى ثم أعدت قراءتها مرات ومرات دون توقف، استعدت الحديث الذي جرى بين ديلاك ونتالي، حاولت أن أربط بين التفاصيل التي جاءت فيه والتحقيق الذي بين يدي في الجريدة.

غفوت واستيقظت أكثر من مرة، أحسست بألم حاد في رقبتي، الأمر الذي دفعني للدخول في فراشي والاستسلام للنوم. كنت أهذي في نومي كالمحموم، أرى في أحلامي كوابيس مفزعة، تتكرر أمام عيني كل المشاهد بتفاصيلها. كنت أتعرق بشدة لحد البلل، كأنّ جسدي غمس في برميل ماء. من شدة البلل كان جسدي يرتجف، وكنت كعصفور مبلل.

كنت أراهم حقيقة، لم أكن أهذي. كانا يجلسان على طاولة في أقصى زاوية في المقهى التركي، يرتشفان الشاي الأحمر الخفيف، الكوب تلو الآخر. فلم يتوقف النادل عن إعادة ملء أكوابهما كلما فرغت.

كان وجه هَارون كُونُوك ممتقعًا ومصفرًا، وهو لا يتوقف عن شبك أصابع يديه في بعضهم البعض، ونزعها مجددا في حركة تلقائية. في حين كان إِمْرِي آكيلْ يجلس على الكرسي المقابل له، مشوّش الفكر، وهو لا يلبث أن يلتفت باتجاه النافذة، يترقب الشارع من الخارج، وسرعان ما يعيد النظر إلى ساعته. كأنّه ينتظر قدوم شخص ما.

مضى وقت طويل على جلوسهما وبقائهما على تلك الوضعية، وهما لا ينبسان ببنت شفة. فجأة يشير إمْري إلى مدخل المقهى بحركة من رأسه وعينه، للفت انتباه هارون. ما هي إلا لحظات حتى وصل إِيرَنْ لِيمَانْ، سلم عليهما، ثم وقفا وخرجا معه.

كانت أغلب شوارع شارلوروا مزينة بالأحمر احتفالا بالأعياد المسيحية المقدسة في انتظار استقبال العام الجديد؛ فأغلب المحلات والمتاجر التي مروا بها كانت تعلق لافتات التخفيضات والتزيلات في الأسعار، وكانت صور العروض المغرية على جلّ الواجهات. حتى شرفات المنازل والبيوت تزينت أغلبها بنماذج مصغرة لشجرة الميلاد، ومنها من يتدلى عليها الرجل الأسطوري ذو الثياب الحمراء بابا نويل حاملا كيس الهدايا على ظهره.

صعد الثلاثة عربة التراموای، الذي رُسم على هيكله الخارجي الهدايا وصور القديسين. لم يضطروا لدفع ثمن التذكرة أو لتمرير بطاقتهم على الجهاز، لأن اليوم كان الركوب فيه مجانًا. في المحطة الرابعة أشار لهم إيرن بالنزول، ما أن انفتحت الأبواب حتى همَّ الثلاثة بالخروج.

كانت السماء ملبدة، والشمس متوارية خلف السحب، على الرغم من أنّها توشك على المغيب. الأحياء التي مروا بها تكاد تكون مهجورة، بسبب قلة الحركة فيها. بعد أن وصلوا إلى الحديقة سار إِيرَنْ في الاتجاه المؤدي إلى وسط الحديقة، ومضى هارون وإِمْرا في مسار آخر.

لما رأى سليم زهري إيرن قادما، وقف من المقعد الذي كان جالسا عليه. ما هي إلا لحظات تبادلا فيها كلمات مقتضبة، ثم أخرج سليم كيسا صغيرا فيه مسحوقًا أبيض اللون، سلمه إِيرَنْ مبلغًا من المال بعد أن دفن الكيس في جيب سترته الداخلي غير المرئي.

بينما كان سليم يمرر الأوراق المالية بين أصابعه المرتجفة للتأكد من تمام مجموعها. حتى أمسكه إمرا من الخلف شادًا على جسده الهزيل بكلتا يديه الضخمتين، وباغته هارون بطعنات متعددة، حاول سليم أن ينتفض، أن يقاوم، لكنّه استسلم لحشرجة أخيرة، ثم سرعان ما خمد وجمدت عيناه أمام الدم المتدفق من جسده كنهر.

خرج الثلاثة من الحديقة وتركوه غارقًا في دمائه. عند باب الحديقة توقف إِيرَنْ ليمان ثم رفع رأسه وتنفس ملء صدره، محدقًا في عيني صديقيه، وبكل أريحية وبصوت يحمل نبرة الافتخار، قال:

– الأفعال التي تحرر الناس من شر الأرواح الملوثة لا تحتاج إلى تبرير، بل هي شرف على صدور الرجال. ثم مضى الثلاثة بخطى واثقة يشقون الشوارع والأحياء في ظلام الليل البهيم، إلى أن ذابوا في حلكة سواده.

3

بتُّ أبحث عن عدنان عبد اللاوي في مقاهي وحانات وشوارع شارلوروا، لأنّه غالبا ما كان يقضي جزءا مهما من نهاره وليله في التسكع مع أصدقائه. بعد أسبوع كامل من البحث والسؤال، والتنقل من مكان إلى آخر، فقدت الأمل في أن أعثر عليه. فهمت أن لا جدوى من البحث عن شخص في مدينة كشارلوروا، فكأنّك تبحث عن إبرة في كومة قش. قررت أن أتوقف عن البحث.

بينما أنا جالس أرتشف من كوب الشاي في مقهى يديره شاب مغربي من طنجة، اسمه عبد المولى. فبين الفينة والأخرى كنت أقصد هذا المقهى لجودة الشاي المعشب الذي يقدمه، مرفقًا بخبز الدار الساخن، وزيت الزيتون الجبلي، والجبن العربي اللذيذ، وحبات زيتون، وعصير البرتقال الطبيعي وعلبة ياغورت. حتى دخل شاب بدين، بسمته العريضة المطبوعة على وجهه تدل على خفة دمه، يظهر أنه لم يبلغ الثلاثين بعد، لكن بدانته تظهره بعمر أكبر. قَبَّل عبد المولى الشاب بحرارة ثم سأله:

– كيف الحال يا أَوْلِيدْ لَبْلَادْ؟

ولما عاد الشاب للجلوس مع رفقته بعدما ناداه أحدهم:

– واش يا عدنان المَرُوكِي مُدَّة ما شَفْنَاكْ هنا، هذي غيبة كبيرة يا راجل؟

بقيت أفكر، هل من المعقول أن يكون هذا الشاب هو عدنان عبد اللاوي بشحمه ولحمه ودمه، الذي قضيت أسبوعا بأكمله أبحث عن كيفية الوصول إلى أثره، دون أن أحقق أدنى نتيجة تذكر؟ لم أتدخل، ولم أقم بأيّ فعل، سوى صب الشاي من الإبريق النحاسي الذي أمامي، والاستمتاع بارتشافه على مهل، واستراق السمع، والنظر خفية من حين لآخر إلى الطاولة التي جمعت عدنان مع شلته.

إلى أن وقف عدنان عازمًا على المغادرة، في الحقيقة ترددت كثيرا قبل أن أكلمه، أنا لا أعرفه، ولا أعرف إن كان هو الشخص الذي أبحث عنه، وماذا سأقول له؟ أو كيف سأفتح الحديث معه؟

كسر ترددي خروج عدنان من المقهى، حتى وجدتني أخرج مهرولا في أثره دون حتى أن أدفع ثمن الشاي. اقتربت منه، وبعد أن حييته لم يسعفني حتى على السؤال، بادرني مباشرة قائلا:

– خويا من الجزائر أو من تونس؟

– من الجزائر.

– نحب الجزائر، وعندي الكثير من الأصدقاء الجزائريين في حي بارباس الباريسي.

عدنان لم يتوقف عن الحديث، فقد سرد علي كل تجاربه ومغامراته مع أصدقائه الجزائريين في باريس. أبديت اهتمامي بكلامه من خلال الإنصات الذي تظاهرت به. لم يترك لي عدنان فرصة لسؤاله، بدا لي كأنّه متعطش للحديث مع شخص يعتقد أنه قريب، أو أنه يمر بظرف نفسي صعب جعله يسترسل في البوح هكذا دون أدنى مقدمات. وراح يقص على مسامعي حكايته:

– عائلتي أغلبها من الدار البيضاء، أحيانا آخذ أمي إلى هناك، عند أخوالي وبيت جدتي، كانت لقاءات حميمية تجتمع فيها كل العائلة بصغارها وكبارها. منذ فترة بسبب بعض الظروف لم نعد نذهب إلى هناك.

أبي تركنا أنا وأمي وأختار صديقته البلجيكية النصرانية، لذلك اضطرت أمي لمغادرة بلجيكا والعودة إلى المغرب. قضينا سنوات في المغرب عند أخوالي، فقد تربيت مع خالي نبيل الذي كان يكبرني بسبع سنوات فقط.

بعد مضي سنوات قررت أمي العودة إلى بلجيكا، هي عندها الوثائق وأنا أيضا مولود في بلجيكا. كانت ظروفا صعبة علي وعلى أمي. أمي تشتغل في النهار والليل، ترعى نظافة وشؤون بيت أسرة بلجيكية وتداوم في مخبزة. وفي الوقت ذاته كانت تقرأ في النيذرلاند (الهولندية)، اللغة السائدة في مدينة أَنْتوَاربَان التي كنا نقيم بها.

لم أفلح في الدراسة، على الرغم من أن أمي لم تبخل عليّ بأي شيء، كانت تقتني لي أفضل ماركات الألبسة والأحذية، التي تثير استغراب وإعجاب النسبة الغالبة من زملائي البلجيكين في الصف الدراسي، لأن أولياءهم كانوا لا يقتنونها لهم بسبب ثمنها الغالي جدا. كنت أبقى في البيت وأمي تعمل دوامين، لذلك تعلمت طبخ العديد من الطواجن، والاهتمام بشؤون البيت.

خالي نبيل تحسن حاله المالي ورست أموره في التجارة، خصوصًا بعدما تزوّج خديجة بنت رجل أعمال معروف في كازا بلانكا. بين الفينة والأخرى كان يزورنا، تعرف مرة جاء إلى شارلورا، أخذني معه إلى إسبانيا. أدخلني إلى بناية، لحظة جلوسنا، التفت به فتاتان، غمز واحدة. نادت على صديقتها الثالثة كانت تبدو أنّها أوكرانية، شقراء وصغيرة السن كأنّها حورية. لم أرفع رأسي حينها من شدة الخجل، وجهي أصبح كحبة الطماطم من فرط الحمرة، وبدأت أشعر بقطرات العرق يفرزها جسدي.

يومها ضحك خالي نبيل كما لم يضحك من قبل، وأشار لها بأن تأخذني. صحبتني إلى غرفة في نهاية الرواق، غير بعيد. بينما تركت خالي مع الفتاتين، كان يرتدي الروب دو شومبر، ويستجيب لهما بحركات كسرت كل مسافة كانت بيني وبينه. لو رمي بي من جرف

هار لكان أفضل لي من هذا الموقف الذي وجدتني فيه. لحظة دخلنا الغرفة تمنعت، وكابرت، لكن في النهاية وجدتني أرضخ وأرضخ. لم يكن الأمر بيدي، ولم أقو إلا على الاستسلام والانغماس أكثر فأكثر. الأمر فوق طاقتي. من يومها وأنا كالنحلة من زهرة إلى زهرة. إلى أن حدث أمر جعلني أعزم بدون رجعة على الخروج من هذا العالم.

كانت تربطني صداقة متينة بصديق مغربي اسمه عزيز، يقع بيت أخته في حي جَاتْ ببروكسل، ودوما ما كانت أخته تسافر بسبب المؤتمرات وغيره، وتترك له مفتاح الشقة. من مرة إلى أخرى كنا نصحب الفتيات إلى هنالك. كان عزيز خبيرا وله شبكة معارف وعلاقات واسعة.

ذات يوم ركبت معه السيارة كي نمر على حي بوكستال، فهناك من ينتظرنا. لما وصلنا إلى كنيسة ماري كريستين وجدنا بمحاذاتها امرأتين في انتظارنا، أظن أنّ واحدة في نهاية الثلاثين والأخرى في بداية الأربعين، ركبتا في المقاعد الخلفية للسيارة، غمرت السيارة من الداخل سحابة عطر مدوّخ. وكنت في نفسي أستعجل الأمر للوصول إلى الشقّة، اخبرني عزيز أن المرأة التي خلفي هي صديقتي التي سأقضي معها الأمسية، كم كانت سعادتي غامرة لأنني انتبهت لها واقفة بقدها المعتدل وقوامها الرشيق ولباسها الفاتن.

لما أدرت رأسي للخلف ونظرنا إلى بعضنا البعض، كانت صدمتي كبيرة، لو انفتحت الأرض وابتلعتني لكان أهون عليّ.

ما الذي يحدث في هذا العالم؟

ألهذا الحد تحصل أشياء مزلزلة؟

إنّها علامات الساعة!

المرأة التي خلفي هي والدة صديقي خالد، ليلة البارحة فقط كنت معه، إنّه من أعز أصدقائي. يا إلهي لو زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت أثقالها، لكان أهون عليّ من أن أجد نفسي في هذا الموقف!!

هل يسوِّغ لها موت زوجها قبل سنوات السقوط في الرذيلة.

طيلة الوقت وأنا مطرق الرأس، غارق في التفكير، لم أنبس ببنت شفة وهي كذلك. هي أيضا تعرفني، بل تعرفني أشد المعرفة. في منتصف الطريق إلى حي جَاتْ طَلبتُ من عزيز أن يوقف السيارة، عندما سألني مستغربا، قلت له باصرار: توقف سأنزل. اقتربت برأسها ووضعت يديها على كتفي وقالت راجية:

– لا تخلط بين الأمور، اليوم نحن في شأن آخر. لا تفسد الأمور أتركها تسير كما هي.

لم أنظر إليها حتى، وأمطرها بسيل من السباب، ضربت باب السيارة بعنف، ومشيت دون أن ألوي خلفي. مذ ذلك اليوم لم أعد أثق في النساء المغربيات المقيمات ببلجيكا، هن متفتحات لا يؤتمن لهنّ جانب، حتى و إن كن يتظاهرن بالعفة والدين. فلا تُؤتَمن أي منهن، لا السافرة ولا المحجبة.

لما قررت أمي أن أتزوج، تزوجت من الريف المغربي فتاة فقيرة معدمة أمية، كي ترعاني وتصون كرامتي، لكن ما حدث، أنها بعدما أنجبت ابننا محمد، انتظرتني حتى أكملت لها كل الوثائق، ولحظة حصولها على الوثائق البلجيكية. تخلت عني، وطلبت الطلاق. أحضرت لي الشرطة أكثر من مرة. إلى أن تطلقنا. منحتها السلطات منزلًا اجتماعيًا وخصت لها مبلغًا يصرف لها كل شهر جراء رعاية ابننا محمد.

الزَّافْرَة الأمية استغلتني واستغفلتني من أجل ان تحصل الوثائق فقط، وها هي كل شهر ترسل من منحة ابنينا الأموال إلى والديها المعدمين في المغرب، الذين أعماهم الطمع. ولا أحد نصحها، الأمر مخطط من قبل عن سبق الإصرار والترصد. الجميع مستفيد، وأضحيت أنا بينهم كأكبر مغفل.

في البداية حرمتني من رؤية فلذة كبدي، لكن بالقضاء أخضعتها للأمر الواقع. حاولت معها كي ترجع لبيت الطاعة الزوجية، رفضت

وأصرت على موقفها. لكن لا أنكر أنني من حين لأخر كنت أزورها كي أرى ابني، لكنها تمنحني نفسها دون مقاومة او تمنّع.

تقضي وقتها في التبضع، أو التسكع، أو في البيت، لا تتقن كلمة فرنسية واحدة، غير مرسي وبونجور. حتى العربية تفهمها بعسر. تتكلم الدارجة المغربية أو الأمازيغية الشلحية فقط.

بلاد الكفار يا أخي، لم يكفهم عهرهم، فزادوا غَلْبُوا علينا حتى نساءنا، وبتنا لا نتحكم فيهن! إنّهم لا يحبوننا يمقتوننا، لا يحبون العرب، لا يحبون الإسلام. درست معهم، اختلطت بهم، سكنت بجوارهم، عاشرتهم، النصارى كلاب، لا يحبوننا، حتى وإن تظاهروا بالعكس.

كان عدنان يتكلم، وكان استغرابي يزيد. بلجيكا بلد متسامح مع المسلمين مقارنة بالبلدان الأوروبية الأخرى، يسمحون لهم ببناء المساجد وأماكن العبادة، قاموا بإدراج مواد متعلقة بالتربية الإسلامية في المنهاج التعليمي لمن يرغب من أبناء المسلمين، يمنحون عطلا خاصة ببعض أعياد المسلمين، يعاملون الجالية المسلمة دون تمييز، في رمضان يخفضون أسعار السلع والبضائع. بلجيكا بلد التسامح. ما هذا التناقض الصارخ؟ عدنان هذا الغارق في الرذائل والمتعة، الذي لا يؤدي واجباته الدينية، وبالكاد يفقه نزرا يسيرا في أمور الدين يتكلم بتطرف وغلو، وبمنطق المتدين المتشدد. ولد في بلجيكا وتربى فيها، ولا يتقن الفرنسية، ولا الهولندية، وإذا تكلم بإحداهما كسر كل قواعدها وأصولها. كأنّه خلق لغة جديدة بَلْجْيُو-أَرَاب.

لكن في الحقيقة، لم أكن أصغي لحديثه ذاك، فقد كنت على أحر من الجمر لمعرفة إن كان هو عدنان عبد اللاوي الذي أبحث عنه أم أنّه شخص آخر؟ إلى أن سألته:

– هل أنت عدنان عبد اللاوي؟

– أجل، كيف تعرف اسمي بالكامل؟ هل أنت تعرفني؟

– لا، إطلاقا. أنا لا أعرفك. هناك من أخبرني أنك صديق شاب جزائري اسمه سليم زهري؟

– سليم الجزايري، التقيت به في المقهى بضع مرات مع أصدقاء، أعجبتني شجاعته ورجولته، فيه النيف تاع المغرب العربي. وقد سمعت قبل أيام بالحادثة الأليمة، تألمت لأجله كثيرا، على الرغم من أنه لم تجمعنا صداقة عدا جلسات يسيرة في مقهى عبد المولى جاءت على سبيل المصادفة بدون موعد مسبق.

– رجاء، أخبرني كل شيء تعرفه عنه، الأمر ضروري.

– كان سليم شخصية مرحة ويحب الفكاهة، في جلساتنا كنا نتكلم كثيرا عن الحراقة ومغامراتهم في البحر على ظهر القوارب، وحيلهم في التنقل بين دول الاتحاد الأوروبي دون أن يقعوا في قبضة الشرطة.

ما أعرفه عن سليم أنّه هاجر إلى أوروبا من أجل العمل والعيش بكرامة، قادمًا من رأس الحمرا بعنابة على متن قارب متهالك، هلك أكثر من نصف الحراقة الذين رافقوه قبل أن تكتمل رحلة هجرتهم، لأنّ هناك نساء وفتيات وأطفالا منهم من لم يستطع تحمل مشقة الرحلة، كما أنّ قاربهم انقلب بهم في عرض البحر أكثر من مرة.

بعد رحلة الموت تلك وصل القارب إلى جزيرة سردينيا الإيطالية، لم تكن ايطاليا مقصد سليم، كانت بمثابة نقطة انطلاق إلى الجنة الموعودة. اختار سليم أن تكون رحلته القادمة إلى فرنسا بواسطة القطار كي لا يكشتف أمره من قبل الشرطة. بفضل مساعدة الكثير من الأصدقاء وصل سليم إلى فرنسا دون مشقة.

لم يجد سليم فرصة عمل متاحة أمامه سوى قطف الفاكهة في الأرياف والحقول مع مجموعة من المهاجرين العرب والأفارقة، وقد عانى من استغلال أرباب عمله بسبب عدم امتلاكه وثائق الإقامة، طيلة أشهر وهو كالعبد يكدّ ويتعب مقابل أجر زهيد، وحتى الإقامة

الموفرة لهم لم تكن مناسبة، فقد تم تكديسهم وحشرهم كالحيوانات في مستودعات لا تتوفر على أدنى شروط الراحة.

لم يصمد سليم طويلا انتقل إلى باريس، حاول مجددًا البحث عن عمل محترم في مجال تخصصه الجامعي، لكن من دون جدوى، باءت كل محاولاته بالفشل. في باريس وجد أصدقاء يعرفهم أقام عندهم في حي بَارْبَاسْ المعروف، سيء الصيت عند الفرنسيين. كي يضمن لقمة عيشه انخرط معهم في السرقة من المتاجر والمحلات، وبيع مقتنياتهم في الأسواق الأسبوعية.

بعد مطاردات الشرطة، وتعليق اسمه ضمن قائمة المبحوث عنهم، تنقل إلى مدينة فرنسية صغيرة، توارى فيها عن الأنظار فترة زمن، ومنها سافر إلى بروكسل، ومن بروكسل تنقل إلى مدينة شارلوروا وأستقر فيها، وبقية القصة أظنك تعرفها.

4

بعد زواجي بنور بدأت أحس بطعم آخر للحياة، وأضحت حياتي أكثر معنى من ذي قبل، اتضحت أهم ملامحها وظهرت غالبية معالمها، وبت أكثر رضًا واقتناعًا بما أصبحت عليه. لكن قضية الجثة التي طفت على السطح قذفت بي مجددًا إلى قاع الماضي، ماضي عائلة والدي التي لم يسبق لي وأن التقيت بأحد من أفرادها، وما أعرفه عن هذا الماضي وصلني من حكايات أبي، عن أناس لم ألتق بهم، وعن أرض لم تطأها قدماي. ماضي العار والخزي الذي لطخ شرف العائلة وأهان كرامتها. فتح أمامي كل أبواب الوجع الموصدة، ها هي صورة الصدمة التي عذبت ذلك الطفل البريء الذي كانه والدي، وها هي صورة ذلك الجرح الغائر الذي لازم جدتي، وها هي صورة جدي الذي خذلته انحرافات وتشوهات الثورة. كل تلك الصور أصبحت حاضرة أمامي، الآن، بسبب تلك الجثة التي لازالت عالقة في مستشفى شارلوروا، كشريط فيلم سينمائي مرعب، جعلني أسير في متاهة معتمة لا مخرج لها. الأمر أشبه بلعبة البازل الورقية، فبعد أن كنت أبحث عن آخر قطعة لاستكمال الصورة الضائعة، ها هو القدر يخلط كل تلك القطع الورقية أمامي. ويدخلني في حالة من الفوضى والضياع والتيهان.

اضطررت لأن أطلب من إدارة الشركة عطلة لأسبوعين، كي أخرج من هذا الجو القاتل الذي كاد أن يعصف بي. بعد دراسة طلبي والحجج التي تضمنها باستفاضة، تم لاحقًا إجراء مقابلة معي لتقييم

حالتي ومناقشتها مع اللجنة الاجتماعية، صادق السيد ديسي في النهاية على قرار منحي عشرة أيام أستعيد فيها راحتي وسكينتي.

كانت نور تتصل بي باستمرار، للاطمئنان عني ولمعرفة كل المستجدات التي كنت أطلعها عليها في حينها. فقد ساءها وضعي كثيرًا بعد قصة الجثة وما حدث لي في العمل، أعرفها جيدًا لا يهدأ لها بال حتى تكون بجنبي.

ما أن استلمت ترخيص العطلة حتى دلفت خارجًا، لم انتظر كي أكمل الإشراف على بعض الأعمال اليومية العالقة، فتحت باب السيارة وأشعلت المحرك ثم انطلقت من دون أن ألوي خلفي. اضطررت في طريقي إلى باريس أن أتوقف مرتين، مرة لتعبئة وقود السيارة، ومرة أخرى للاستراحة ولسد رمقي.

لما وصلت إلى البيت وجدت نور في انتظاري، مباشرة بعد أن فتحت لي الباب احتضنتني، لم تنبس بكلمة عدا أنّها اتكأت برأسها على كتفي الأيمن، وكانت تدعك ظهري بيدها اليسرى وتفرك شعر رأسي بيدها الأخرى. أما أنا فقد كنت كالعائد من حرب ضروس.

اقترحت علي نور أن آخذ دش بالماء الساخن كي أزيل عني التعب، وبعدها نتحدث، فهناك ما ستقوله لي! لم أرغب في التفكير ومحاولة استنتاج ما هو الشيء المهم الذي تود نور أن تحدثني عنه؟ بعد الحمام أخذتني نور إلى طاولة الأكل، شعرت ببعض الجوع على غير العادة! لذلك أكلت حتى شبعت. فمن عادتي أن تضعف شهيتي عندما أكون متوترًا!

بعد أن فرغت من الأكل بقيت جالسا على كرسي طاولة الأكل لاحتساء كوب القهوة، حتى نهضت نور من مكانها، فتحت حقيبتها وأخرجت منها ورقيتين، ثم قالت:

– حجزت لنا تذكرتين نحو قسنطينة في رحلة بعد الغد، يجب أن ترى عائلتك، أن تتعرف على أهلك، أن تعرف هوية تلك الجثة، من غير المعقول أن تظل هكذا كغصن مقطوع من شجرة.

كانت نور تتكلم وكنت أصغي لها، ولم أجد ما أقوله لها، أمام حججها وكلامها المنطقي المتسلسل سوى إبداء الموافقة بإيماءة رأسي.

في الغد جهزت نور حقائب السفر وكل مستلزماتنا، في حين أنا لم أتحرك من فراشي، بقيت طيلة النهار مستلقيًا أمام التلفاز، كأنّ جبالًا من التعب والإرهاق سقطت فجأة فوق ظهري. وفي اليوم الموالي نهضنا باكرا قاصدين مطار أورلي الدولي.

أثناء تسجيل الحقائب صادفنا شابة محاطة بثلاث حقائب وتتوسل إلى موظفة الخطوط الجوية، لأنّها لا تملك المال الكافي لدفع ثمن الحمولة الزائدة، لكن الموظفة وبملامح صارمة خيرتها إما أن تدفع أو ترمي الحمولة الزائدة في السلة الكبيرة التي وضعتها أمامها. بقت الشابة تترجى الموظفة وتتوسل لها، لكن الأخيرة أمرتها أن تتنحى جانباً كي نعبر أنا ونور.

بعد أن سجلت الحقائب، بقيت أتتبع بطرف بصري ما يحدث بين الشابة والموظفة، رأيت تلك الشابة تفتح حقائبها، أخرجت مكواة وبعض الأواني والأغطية ومجفف الشعر، رمتها كلها في تلك السلة. ثم أعادت وزن حقائبها مجددًا، أخبرتها الموظفة أن حمولتها مازالت زائدة، وعليها دفع 180 يورو. كانت تلك الشابة كالغريقة تبحث عن قشة تتشبث بها، وجهها أصفر كحبة الليمون.

عزّ عليّ حالها، خصوصا بعدما سمعت أنّها باحثة كانت في بعثة إلى جامعة ستراسبورغ لاستكمال أبحاثها الخاصة بالدكتوراه، وأن المال نفد منها بسبب ثمن إيجار الإستديو الذي أقامت به، ومصاريفها الأخرى طيلة شهر كامل. لما دفعت عنها تهلل وجهها وعاد إليه تدفق الدم، ووعدتني أنها حالما تصل الى بيتها تتصل بي في اليوم الموالي لتسلمني المبلغ. لكنها ستكون آخر مرة ألتقي بها؛ لم تتصل بي في الجزائر، ومع ذلك حاولت أن أتصل بها أكثر من مرة لكنها لا ترد!

أصابني بعض الإنزعاج بسبب تأخر إقلاع الطائرة عن الموعد المحدد في التذكرة بساعة ونصف. كنت أذرع قاعة الركوب جيئة وذهابا، وأقتل بعض الوقت في التجوّل في أرجاء المساحات التجارية التي خصصت للملابس والروائح والعطور، اقتنيت لنور قارورة عطر ديور التي تعشقها. ثم دخلت إلى مساحة الألعاب والحلويات والجرائد، اقتنيت بعض علب الشوكولاطة، ثم اتجهت إلى جهة الجرائد والمجلات والكتب، كنت أتصفح بعيني عناوين أغلفتها، إلى أن صدمني غلاف جريدة ليبيراسيون الفرنسية! صورة عدنان عبد اللاوي تصدرت الغلاف وبعنوان كتب بالبنط العريض: «إجهاض محاولة انتحارية كان سيقوم بها شاب بلجيكي من أصول مغربية في المحطة الشمالية للقطار ببروكسل».

II

قسنطينة المعلقة

« حاسة الشم تطغى على باقي الحواس، في قسنطينة، في كل خطوة، وفي كل التفاتة، وفي كل نفس، تبرز رائحة متميزة.. الملامح كالروائح، تعلن عن نفسها بنفسها، بشكل صارخ في هذه المدينة ».

الطاهر وطار

5

أعتقد أن في قسنطينة شيئا من الإبداع والكثير من الجنون، فأن تفكر في تشييد مدينة فوق الصخر، فإما أن تكون مبدعًا عظيمًا أو مجنونًا كبيرًا.

تربط الجسور المعلقة بين ضفاف الصخور العاشقة. أسفل تلك الجسور فراغ مهول وواد سحيق يسمى واد الرمال. الصخور والجسور تغري العشاق والمنتحرين على المغامرة.

دروب المدينة ضيقة وأحياؤها عتيقة، والجمال موزع فيها بسخاء.

شتاؤها بارد يقض عظام الفقراء والمتعبين الذين يتسللون إلى المطاعم الرخيصة بحثًا عن بعض الدفء الذي يمنحه لهم صحن «حمص دوبل زيت». وقيظ صيفها يخرج الموسرين من جحورهم إلى شواطئ المدن الساحلية طلبا للاستجمام والاستمتاع.

زحمة قسنطينة لا تطاق، السيارة ثابتة بالكاد تتحرك، تعلو في الأثناء جلبة عراك بين سائقين بسبب اصطدام طفيف. صاحب الصامبول ينظر بغضب إلى التلف الظاهر في خلفية سيارته، وهو يرفع عقيرته سبًا وشتمًا في وجه الشاب القروي صاحب المازدا بكل ما أسعفته لحظة الإلهام تلك.

يلتف حولهما جمع من الناس الفضوليين، يرقبون المشهد ولا يحركون ساكنًا، كأنّهم أمام حلبة ملاكمة. الناس هنا على الأعصاب،

وطبيعة الحياة المتغيرة جعلت الواحد منهم كما القنبلة الموقوتة على وشك الانفجار، في أي وقت، وأي مكان.

تطفو في الشوارع والحارات والأزقة العديد من التناقضات والمفارقات الصارخة؛ تتراكم القاذورات والأوساخ والنفايات في زواياها، وعلى جنباتها، وفي جهات عدة،كيفما اتفق. تتقدم بنا السيارة وما تلبث أن تتوقف من جديد، وهكذا دواليك، أضعنا وقتًا طويلًا في زحمة السير.

الأمر الذي أعادني إلى زحمة باريس، حيث اضطررت قبل أشهر، إلى اقتناء دراجة نارية، للانفلات من زحمة طرقات ودروب باريس الغاصة بالسيارات، خصوصا في ساعات الذروة. فأحيانًا، في باريس، عدد الدراجات النارية يفوق عدد السيارات والمركبات، نظرًا لمرونتها وفعاليتها في هكذا ظرف.

أخيرًا وصلنا إلى فندق سيرتا العتيق بشق الأنفس. ما أن سلمني موظف الاستقبال مفتاح الغرفة حتى هرعت إليها مهرولا. وما أن فتحت الباب حتى فككت عقد خيوط حذائي ونزعت جواربي، وارتميت مستلقيًا على سرير الغرفة.

كانت نور بهدوئها المعتاد تفتح الحقائب، وتخرج بعض الملابس، وتوزعها بتنسيق على أقسام الخزانة.

في اليوم الموالي خرجت أنا ونور العارفة بدروب وأسرار المدينة، البرد يقض العظام ورأسي يكاد يتشقق من شدة الصقيع.

نور الآن تؤدي دور المرشد السياحي، ما أن نصل إلى حيٍّ، أو شارع، أو جسر، أو موقع، حتى تبدأ في شروحاتها؛ تُعَرِّفني باسمه، وبغيض من فيض تاريخه العريق، وتقص عليّ بعضًا من حكاياتها مع المكان.

مررنا على رحبة الجمال، والسويقة، ورحبة الصفوف، وعلى أماكن متفرقة لا أتذكرها كلها، توقفنا أكثر من مرة لالتقاط الصور، ولأكل قلب اللوز. رائحتها وطعمها لازالا يلاحقانني أينما حللت.

أخذتني نور إلى جسر سيدي راشد، وإلى قنطرة الحبال المهيبة التي تتراقص بجنون يمينا وشمالا في الفراغ. عبرنا جسورًا وأزقةً ودروبًا متنوعة اختلطت فيها رائحة الأطعمة برائحة التاريخ.

في أزقة ودروب الأحياء العتيقة، تتزاحم البضائع المقلدة مع المنتجات التقليدية الأصيلة. بعض المحلات الضيّقة الموزعة هنا وهناك، يزاول أصحابها حرفتي النقش على النحاس وصياغة الذهب. الحرف هنا تقاوم كالبشر، من أجل الحياة والوجود، وتتحدى كذلك من أجل البقاء والاستمرار.

كما يتصالح أنفك مع روائح الحلويات والأطباق التقليدية، كقلب اللوز و»التريدة» وغيرهما. روائح الأطعمة المنبعثة من هنا وهناك، ولسعات البرد القاصمة التي تصفق الوجوه، تحرك نواقيس الجوع في أمعائي الخاوية. ما جعلني أدخل في مرحلة بحث عن مطعم مناسب. اهتدينا إلى مطعم وسط بنايات نهج لا أذكر اسمه، لو لم نسلك طريقا جانبية، لما انتبهنا له.

بعد أن خرجنا من المطعم أنا ونور، عدنا أدراجنا إلى رحبة الجمال. لكن هذه المرة تجاوزنا مدخلها، وولجنا في شوارعها وسوقها، تلبية لرغبة نور المفاجئة. سلكنا دروبها وأزقتها الضيّقة، وعندما مررنا ببعض الأزقة التي تتراص فيها محلّات الأحذية والألبسة الرجالية، انتبهت إلى أنّ كلّ من صادفناهم هناك، تركوا أشغالهم، وجلّ ما كانوا يفعلونه، ووقفوا مشدوهين يحدقون فينا أنا ونور، من قمة رأسينا إلى أخمص قدمينا، بطريقة فجة وغير متوقعة، كأنّنا عراة بينهم. أعينهم مغروسة في أجسادنا بفظاظة كالإبر، كأنّنا ارتكبنا جرمًا عظيمًا.

لم أعتد على هكذا سلوك، حتى في أشد شوارع أمستردام نزقًا وجنونًا، لم أستغرب أوّل مرة أجدني على طريق الصدفة وسط شارع كل واجهات محلّاته بدلًا من البضائع نساء من جنسيات مختلفة، لا يكدن يغطين أجسادهن.

ماذا لو وضع هؤلاء النّاس في هذا الشارع؟ كيف ستكون ردة فعلهم ؟

الأمر استفزني، وبلغ بي الغضب مبلغًا كبيرًا، إلى درجة أني كدت أن أصرخ في وجوهم البائسة. لو لا توسل ورجاء نور لي بأن أهدأ وأتماسك، لكانت الكارثة، لأنّني كنت قاب قوسين أو أدنى من الانفجار.

من شدة القلق قفلت راجعًا الى الفندق، لم أرغب في الكلام، ألحت نور على شرح الموقف، لم أكن حينها مستعدا لسماع حديثها، الغضب أعمى بصيرتي، كنت جد متوتر. رجوت نور أن تحترم رغبتي، وتتركني في حالي، ولا تعكر علي جنوحي للصمت.

فمن المفروض أنّها تعرف عاداتي وطقوسي؛ فعندما تجتاحني سورة الغضب، أجنح للنوم، أو للصمت، وإن لم أفعل أصاب بنوبة هستيرية حادة.

بعد حمام ساخن زال عني التوتر بعض الشيء، وغادرني الاضطراب الذي أصابني فجأة، وبدأت أستعيد تدريجيا حيويّتي. اقتربت مني نور، طوقتني بذراعيها، وطبعت قبلة عميقة على وجنتي، امتصت ضغطا رهيبا ألمَّ بي. أغمضت عيني. تنفسنا نحن الاثنين بعمق، واحتضنا بعضنا إلى حد الاتحاد، من دون أن ننبس ببنت شفة.

حالما اطمأنت نور بأنني استعدت توازني، وانطفأت نار الغضب الملتهبة داخلي، أخبرتني بأن المكان مُحرَّم على النساء بحكم العرف، ولم تدخله امرأة قط، مذ عقود طويلة جدًا.

الأمر يعود إلى فترة الاستعمار الفرنسي حيث حُوّل المكان لتسلية الجنود الفرنسيين، وإشباع رغباتهم، وبقي الأمر على حاله بعد الاستقلال، إلى غاية عقدين من الزمن تقريبا.

لكن بعد غلق بيوت الدعارة تلك، بقي هذا العرف سائدًا، والمكان مقصدًا للرجال فقط، محرمًا على النساء.

ونما فضول نور الحارق لاكتشاف ما بالداخل، مذ كانت تقيم في قسنطينة. لم تكن تتورع عن النظر في عتبة ذلك الشارع، ولم تقو على ولوجه بمفردها، وبالطبع لا أحد كان سيوافق على اصطحابها لذلك المكان الممنوع.

لكنها تستغفلني بسبب جهلي، وبسبب فضول قديم ظلّ نائمًا، كاد استيقاظه الآن أن يقتل القطة الصغيرة التي بداخلها.

أخبرتني نور أنّنا بتنا ليلة في الفندق، ومن الأفضل أن آخذها لبيت أهلها، فأمّها ستغضب منها.

وقفنا أمام موظف الاستقبال، وهو شاب بشوش يدخل القلب من أول مرة تراه. ولما هممت أن أسلمه مفتاح الغرفة، غرس عينيه في يدي التي تجر حقيبة متوسطة الحجم، ثم قال:

– هل ستغادرنا مسيو زهري؟

– ليس بعد، أرافق زوجتي إلى بيت أهلها، وأعود لاحقا. كل أغراضي في الغرفة. سأمضي أيامًا أخرى هنا.

– جيد، يسعدنا أنّك ستبقى معنا مزيدًا من الوقت. مرحبًا بك دومًا مسيو.

– شكرا لك. من لطفك.

تنحنح موظف الاستقبال، وعدّل من جلوسه على الكرسي الدوار، شعرت كأنّه نظر إلي بزهو وبكل فخر تحدث:

– تعرف الأديب كاتب ياسين؟

– أجل هو كاتب معروف وذائع الصيت، قرأت روايته «نجمة»، حينما قرأتها أول مرة، أحسست ببعض الملل. بصراحة أتعبتني متابعة بعض التفاصيل كأنّها يوميات. لكن لما أعدت قراءتها مرة أخرى، أحسست ببهجة وروح الأمكنة، وعشت حقيقة من خلال الرواية أجواء قسنطينة وعنابة. على فكرة، أعرف أيضا مالك حداد، ابن مدينة قسنطينة. تدهشني لغته وعوالمه، أحببته من أوّل كتاب قرأته له،

اعتقد كان رواية «سأهبك غزالة»، ومن ثمة اندفعت في قراءة كتبه بنهم كبير. هُما اختارا الكتابة باللّغة الفرنسية، لذلك أعمالهما الأدبية متوفرة بفرنسا. وقتذاك كانت اللّغة الفرنسية أداة لفضح انتهاكات المستعمر الفرنسي.

أحسست بابتهاج موظف الاستقبال من عينيه اللّتين يفضحهما الفرح، فقد سره أنّني أعرف كاتب ياسين. فكأنّه كان ينتظر على أحر من الجمر، فبمجرد أن أكملت كلماتي أردف الرجل قائلا:

– هل تعرف أن اسمي عبد المومن كاتب؟

– تشرفنا. بالطبع أنت تعرف اسمي، كل بياناتي الخاصة مدونة عندك في بطاقة المعلومات.

لاحظت من ملامح وجهه أنّه أحس ببعض الحرج، لم أستطع تفسير الأمر. فرك يديه ومؤخرة رقبته، ثم نظر إلّي مجددًا، وقال:

– أنا وكاتب ياسين من عائلة واحدة، فهو ابن عم أبي.

– جميل، إذًا فيك شيء رائحة كاتب ياسين. تشرفني معرفتك صديقي عبد المومن.

لمحت الفرحة تغمره من كل جانب، كأنّ الدنيا لا تسعه. في حين كانت نور تضع يدها على فمها، محاولة إخفاء ضحكة مفاجئة لم تتحكم في إيقافها. لذلك استعجلت الخروج، كي لا أحرج مجددًا مع الرجل.

ما أن تجاوزنا بوابة الخروج، حتى عاتبت نور على سلوكها السابق أمام عبد المؤمن موظف الاستقبال. فماذا لو انتبه لها؟ لكن ما فاجأني أكثر، ولم أجد له تأويلا، أنّها لم تتوقف عن الضحك، أصابتها حالة هستيرية من الضحك.

استشطت غضبًا، حاولت أن أكظم غيظي على مضض. الناس هنا فضوليون جدا، لا يصدقون أن يروا مظهرًا ما أو سلوكًا معيّنًا في الشارع، حتى يتجمهروا للتفرج. لا يهمهم التطفل على الآخرين، بقدر

ما يهمهم فقط الاستمتاع بالفرجة. فتطفلهم وفضولهم نابعان من الفقدان والحرمان الذي عاشوه، خصوصا بعد أحداث أكتوبر 1988 التي تلتها العشرية السوداء، أو الحمراء كما يسمونها. حيث غرق البلد في سنوات التسعينيات في موجة من العنف والدم والإرهاب والدمار الشامل والممنهج لكلّ شيء ينبض بالحياة. فهم، اليوم، فقدوا علاقتهم بالمسرح والسينما. أغلب قاعات السينما أغلقت، والمسرح لا يتكلم لغة الشارع، لذلك هم غير متصالحين مع المسرح. هم محرومون من الفرجة، لذلك يسترقون الفرجة حتى في حوادث المرور الدموية، حيث يضطرون للمخاطرة بأنفسهم، وإيقاف سياراتهم في الطرق السيارة، وقطع الطريق راجلين للمشاهدة. حتى في العراك الذي قد ينشب بين اثنين، أو بين مجموعتين من المراهقين من حيين مختلفين، لا يضيّعون مشهدًا منه، سواء من نوافذ وشرفات بيوتهم، أو بتواجدهم على أرض المعركة. حقيقة أمرهم غريب.

أوقفت سيارة أجرة لتقلنا إلى بوصوف. قبل أن نركب السيارة، أخبرتني نور أن كاتب ياسين هو اسم مستعار، وأن الاسم الحقيقي للأديب هو «محمد خلوطي». فلم أتمالك نفسي، حتى وجدتني انخرط مع نور في نوبة من الضحك. ما جعل سائق السيارة يبدو مستغربًا لأمرنا، وممكن أنّه اعتقد أنّنا قد تعاطينا مشروبا ما، حرك فينا نشوة الضحك. لم يتوقف عن النظر إلينا من المرآة الارتدادية أمامه إلى أن وصلنا إلى بيت أم نور. المسكين تركنا والحيرة تصحبه.

6

يظهر أنّ أم نور كتومة جدًا، ومن الصنف القليل الكلام، جملها مختصرة، وكلماتها محددة كأنّها كانت تختارها بدقة. المرأة بسيطة جدًا وطيبة كذلك، ومن خلال حديثها المقتضب معي، لا أظن أنّها واصلت دراستها.

ففي زمنها كانت البنت تنقطع عن مواصلة تعليمها في مراحل مبكرة جدًا، لأنّ مكانها الطبيعي بيتها ورعاية زوجها وأبنائها. فوقتذاك كما سبق واخبرني والدي؛ كانت كل فتاة في سن مبكرة تبدأ في تخيّل صورة وشكل عريسها، وفتى أحلامها، الذي يأخذها من بيت والدها على جواد عربي أصيل، ويحلق بها بعيدًا في عالم جميل.

لكن ما حيرني أكثر، كيف التقت أم نور مع والدها ألكسندرو كومانيسكو، وكيف كانت تتواصل معه، وكيف استمرت عشرتهما، وهو القادم من رومانيا بعقد عمل في جامعة منتوري بقسنطينة؟! لا يبدو لي أيّ تجانس بينهما، بالعكس هناك تفاوت طاغ. فقد بدا الأمر غريبا بالنسبة لي، وغرابته تكمن في أنّ جلّ المعطيات تؤكد لي عدم توافقهما، الأمر لا يركب على بعضه، مهما حاولت أن أركبه غصبًا، كورقتي بازل لا يركبان على بعضهما البعض.

المرأة بالكاد تفك الحرف، تتكلم لغة دارجة بسيطة. فبأيّ لغة كانت تتواصل معه، بالرومانية لغته الأصل، أم بالفرنسية اللّغة التي كان يدرس بها في الجامعة؟

كما أن الرجل أكاديمي على ثقافة عالية ودراية واسعة، وهي امرأة بسيطة نذرت نفسها لأشغال وشؤون بيتها، فإذا سلمت أنّهما وجدا لغتهما المشتركة، فكيف كانت تتناقش معه، وكيف حصل التوافق بينهما؟

أم أن الرجل وقع أسيرًا لجمالها الصارخ؟

لا يظهر لي وأنا أتفرس في ملامحها، أنّها كانت في شبابها ذات حسن وجمال.

عندما نقلت لاحقا ظنوني ومتاهاتي تلك، إلى نور، فهمت منها أن والدها هام حبًا بأمّها، لما صادفها «بالملاية» و»العجار»، رأى منها عينيها الواسعتين، وقبقابها الذي تنتعله. لكنه شغف بما رأى. وما كان منه إلّا أن تبعها لدار أبيها. ومن هنا بدأت الحكاية.

وقف الجميع ضد هذا الزواج، في الأخير رضخ الشافعي بولقدام لأنّ ابنته القريبة إلى قلبه فقدت الكثير من وزنها، وكادت أن تهلك بسب عزوفها وامتناعها عن الطعام. اشترط جد نور شرطًا واحدًا على ألكسندرو، أن يسلم ويؤمن بدين محمد صلى الله عليه وسلم. الشاب كان مستعدًا لفعل أي شيء، شرط الظفر بالفتاة التي خبلته. أخذوه إلى جامع سيدي لخضر، وبحضور إمام ومجموعة من المصلين، طلبوا منه أن يتفوه بالشهادتين.

ظل والد نور بعدها يتظاهر بتأدية بعض الطقوس، في حالة حضور أحد أفراد العائلة، لكنّه في حقيقة الأمر لم يلتزم بهذا الدين الجديد.

الحب يعمي عمّا سواه. والعاشق أعمى خلف معشوقه، لا يرى في الكون إلّا محبوبه.

نصبت أم نور صينية دائرية فوق مائدة خشبية وضعتها أمامي، ثم أحضرت إبريق حليب وآخر فيه القهوة، ومجموعة من الصحون الصغيرة الحجم فيها حبات من الكعك والحلويات التقليدية.

رأتني نور أقلب عيني ذات اليمين وذات الشمال، أخبرتني بأن هناك صحن «المقروض»، وصحن «البقلاوة»، وصحن «القطايف»، وصحن «الغّرايْبَة»، وصحن «قرن غزال». وأن كل ما أراه هو من صنع يد أمّها بمناسبة العيد الصغير الذي مر مؤخرا فقط.

كان البيت هادئًا جدًا، إلى درجة أني أحسست بالملل. كنت طيلة الوقت صامتًا، تارة أرفع رأسي في اتجاه السقف المنقوش بالجير، وطورًا أنظر صوب شاشة التلفاز، الموضوع فوق الكومود الخشبية المزينة بمزهريتين مزخرفتين بأشكال متداخلة ورموز أشبه بحروف لغة قديمة، ووروودهما البلاستيكية الحمراء الباهتة اللّون، وصورة والد نور بينهما وهو يطلّ من إطار فضي اللّون.

حاولت أن أجد مبررًا كي أنسحب من هذا الجو الرتيب، فقد نال مني الضجر، ولم أعد أقوى على البقاء أطول.

ناديت نور كي تسعفني من ورطتي تلك، ودون أن تترك لي أدنى خيار، أوصدت في وجهي كل المنافذ المتاحة أمامي، عندما أخبرتني أن مغادرتي تدخل في باب عدم اللّباقة، خصوصًا وأنّ أمّها على وشك أن تفرغ من طهي العشاء، الذي أعدته فرحًا بزيارتي وإكراما لي.

فهمت من كلامها أنّ العادات والتقاليد المتوارثة تقتضي الاعتناء بالضيف، والاحتفال بزيارته بأشهى الأطباق والمأكولات، وألذ الأطعمة والغلال. فما بالك عندما تطأ ركائب هذا الضيف بيت مضيفة لأوّل مرة.

لا أتوقف عن التحديق صوب الساعة الخشبية المعلقة في الحائط المقابل، والمنحنية قليلا نحو الشمال، أنظر إلى شكل تصميمها، الأشبه بالمنزل، لها سقف على شكل مثلث، وباب زجاجي مزخرف من زواياه الأربع يحيط به إطار خشبي، ومفتاح لتعديل عقاربها، وجرس يدق بعدد الساعات.

عقاربها ثابتة بالكاد تتحرك، كأنّ الوقت يريد أن يغيظني بتراخيه، يتثاءب بكسل ويمر ببطء ورتابة، نكاية فيّ. فعندما تستعجل المغادرة لأيّ سبب من الأسباب، سيكون الزمن أوّل من يخذلك، فتمر الدقائق كأنّها دهرٌ. أما عندما ترغب في البقاء، رغبة في تمديد استمتاعك بشيء مبهج، سيقطع سيف الوقت الحاد بهجتك ويفسد عليك متعتك.

أكره أن أقع أسيرًا للانتظار، فعندما أكون أنتظر شيئا مهما، يسكنني الأرق، ويتمطط الليل، ولا يكاد نهار اليوم الموالي يطلع. بينما أبقى طيلة الليل أحصي الثواني، والدقائق، والساعات، أستعجل قدوم اليوم الجديد بصبر يكاد ينفد. أكره الانتظار، ولما يستبد بي الضجر وأنا تحت رحمة الانتظار، كثيرا ما كنت أفكر، فيما لو أن الإنسان اطلع على المستقبل، كيف كان سينتظر الأخبار السارة، التي ستترى تباعًا في حياته بعد أشهر أو سنوات، وعلى أي جمر كان سينتظر الأخبار السيئة، التي ستصيبه في قادم الأيام أو الشهور؟

كثيرًا ما كنت أصل إلى نتيجة صادمة، مفادها أن الإنسان سيلقى حتفه، قبل أن يقف على الأخبار المفرحة أو المحزنة.

سيقتله الانتظار.

الانتظار موت مؤجل.

قطع صوت جرس الباب سرحان تفكيري، وما أن أفقت حتى انتبهت إلى حماتي تستعجل فتح مغلاق الباب.

دخل شاب فارع، بهي الطلعة، لحيته مشذبة. سلم عليها، قائلا:

– معذرة تأخرت كثيرا ماما علجية، حاولت قدر الإمكان أن أصل في وقت مبكر، كي أجلس مع زوج نور. ففي الوقت الذي اتصلت بي، كنت عالقًا خلف طابور طويل من السيارات، فطرف الطريق كان مقطوعا بسبب أشغال الحفر، وإعادة صيانة الأنابيب أو الكوابل الأرضية.

استغربت أن يناديها بماما، وأنا أعرف أنّها خرجت من هذه الحياة بنور فقط، ولم تكرر الزواج مرة أخرى. معقول أن يكون هذا الشاب هو رفيق بن عزوز، الذي حدثتني نور عن قصته حينما كنا في الفندق.

رفيق تربى مع نور، وذات عشية تركته أمه غنوجة باشطرزي عند جارتها علجية، وذهبت لعرس ابن أختها في ميلة. الصغير من شدة الجوع والبكاء المتواصل كاد أن يموت، ولأن أم نور لم تنتبه لنفاد علبة حليب «لحظة» عند آخر مرة أطعمته. ولم تجد حينذاك من ترسله لشراء علبة جديدة، فنور كانت صغيرة، والوقت تأخر، وأغلب المحلات أغلقت. خوفا عليه من الهلاك، ودون أدنى تردد، أخرجت ثديها الأيمن وأرضعته.

بعد سنوات توفي والداه في حادث مرور أليم، وقع عند مخرج الحامة بوزيان، مع سيارة «كاتسونكات باشي»، كان يقودها شاب لعب الكحول برأسه، بعد سهرة خمر مع رفاقه في محشاشة لا تبعد كثيرا عن مكان الحادث.

بعد موافقة أقربائه، تمسكت به حماتي، ولم تبخل عليه بأيّ شيء، كما أنّها لم تفرق بينه وبين نور في المعاملة أو في التربية.

اقترب مني رفيق، احتضنني وسلم علي بحرارة:

– أهلا بك جواد خويا، أنت زوج أعز أخت في الكون.

بصراحة استمتعت كثيرا برفقة رفيق، فقد كان الحديث معه ممتعًا جدًا، ولا يملّ. وقد أخبرني أنّه تخرج من الجامعة مؤخرًا، وهو موظف في إقامة زواغي الجامعية في إطار عقود ما قبل التشغيل. لكنّه غير مجبرٍ على الذهاب الى لعمل هناك، لأنّه يعمل طيلة اليوم في مكتب توثيق خاص.

نسبة مهمة من النّاس هنا، يُدفع لهم من خزينة الدولة في نهاية كل شهر مرتبات، دون أدنى جهد مبذول، باسم صيغ اجتماعية مختلفة للتشغيل. الأمر يتطلب فقط وثيقة مدوّن عليها كامل أيّام

الشهر، يُوَّقِع عليها ربّ العمل. ثم يتم إيداعها لدى مكتب العمل. فهناك من لم تطأ قدمه الشركة، أو المرفق العمومي الذي يعمل به، إلا في نهاية كل شهر من أجل الختم.

لا يهم، لأن الأمر ليس سرًا، والجميع يعرف ويغض الطرف. فاستنزاف خزينة الدولة المليئة بأموال البترول، لغرض شراء صمت الناس وسكوتهم، من أهم الأساليب الفعالة لدحر أيّ احتجاج، أو لتجنب أي فوضى قادمة. بالأموال يشترون صمت الناس وسكوتهم عن ممارساتهم، وأفعالهم التي تفوح منها رائحة الفساد كما قرأت في اخر عدد من مجلة جون افريك.

أموال البترول هي ورقة التوت، التي تغطي عورات سوء تسييرهم، وفشلهم في إدارة الشأن العام. ومن يجرؤ على الكلام، وينتقد السياسة الرشيدة، والإدارة الحكيمة؛ فهو إما متآمر، أو عميل، أو ضد مصلحة الوطن، أو يريد أن يهدد استقراره.

أمام كل هذا البؤس الذي يؤطر حياة هؤلاء الناس، أتذكر أستاذ الاقتصاد الهندي الأصل صابيير باهيتا، الذي درسنا في الجامعة. على الرغم من أن الاقتصاد كان مادة ثانوية في برنامجنا تلك السنة، إلا أنّني أحببت تلك المادة، بسبب أسلوب أستاذنا المشوق.

فقد كنت انتظر حصته كل أسبوع بفارغ الصبر، بصراحة كانت تريحني من مواد التخصص المتعبة.

أتذكر أنّه حدثنا ذات يوم، على هامش درس ما، أنّه أثناء الأزمة الاقتصادية لعام 1929، التي تعرف بأزمة الكساد الأعظم، لما كانت معدلات البطالة مرتفعة، والمنتجات لا تجد من يشتريها، كان يتم تقديم أجور للبطالين، مقابل حفر حفرة في الصباح، وردمها في المساء. حتى يتعلم النّاس هناك قيمة العمل، وأن الدولارات التي تحصلوا عليها هي نتيجة جهد بذلوه.

أتذكر أستاذنا صابيير، الذي ينتمي إلى حضارة الشرق العظيمة، وأنا أرى في هذا البلد إمعان الناس في الدوس على تلك القيم صباح مساء، بدون وخزة ضمير حتى.

لم نتوقف عن الحديث أنا ورفيق، من يرانا سيعتقد أننا نعرف بعضنا من قبل. حتى أثناء جلوسنا للعشاء، لم نتوقف عن الكلام، فقد كنا نتعشى ونتحدث. بصراحة أعجبني صحن «الأُرْدافَرْ»، وشربة «الجاري بالفريك»، وأكلة « التريدة» باللحم المحمّر. الآن أدركت بالتجربة أن حماتي طباخة ماهرة، وأصابعها من ذهب.

خرجنا أنا ورفيق، أخذني بسيارته إلى «مقهى النجمة» العريق، ما أن دخلت حتى أحسست بقشعريرة في كامل جسمي، للمكان رهبته وتاريخه. في الداخل اخترنا طاولة في الزاوية، السقف والجدران مغلّفة بالخشب المنقوش. تظهر لي لوحات لأهم شيوخ فن المالوف والموسيقى الأندلسية، أخبرني رفيق أن الصورة التي تقابلنا هي للشيخ محمّد الطاهر الفرقاني، وأن المقهى مر به كبار الكتّاب والسياسيين؛ كالأديب أحمد رضا حوحو، والشيخ بن باديس، والمفكر مالك بن نبي، والرئيس هواري بومدين، والقائد محمد بوضياف، والمناضل الثوري رابح بيطاط.

أحاول أن أتبيّن الوجوه في لوحة معلقة على يميني، فيها أكثر من مائة وجه، يتوسطهم وجه الشيخ عبد الحميد بن باديس بحجم أكبر، كُتب في أعلاها: قدماء لاعبي مولودية أولمبيك قسنطينة.

أرتشف قهوتي على أنغام المالوف. للقهوة هنا مذاق آخر، مذاق بطعم التاريخ، الذي تحكيه الجسور والأحياء القديمة. ألتفت صوب صورة معلقة، أقرأ من خلالها أن المقهى أسس في عام1928 ميلادية. أنتبه أنّ الجدار نقشت في وسطه نجمة كبيرة الحجم، وعلى يمينها علّق عود خشبي، وعلي شمالها علقت ربابة. أرفع رأسي، أنظر صوب الثرية الزجاجية المضيئة، المعلقة في السقف، والتي تتدلى وسط نجمة نحاسية محاطة بالخشب.

حيثما وليت بصري، أرى اللّوحات، والصور، والأعواد الخشبية، والزخارف، والمنحوتات. أرى تاريخ المدينة، كأنّني في متحف عريق.

بعد جولة بالسيارة في أهم شوارع وأحياء المدينة. أقف الآن في طريق الكورنيش. قسنطينة لا بحر لها، كورنيشها تحتضنه الصخور العتيقة والكهوف. حبات المطر تغسل وجه المدينة المتعب. أطلّ من فوق الصخور على المنحدر، المنظر رهيب جدا، ولا يتكرر، وقد لا تمنحني مدينة أخرى مثل هذه المتعة. الكهوف والمعابر تأسرني. وليس ببعيد جسر عظيم يقف بشموخ.

مع الليل والأضواء يتحوّل المنظر إلى إبداع صرف لا مثيل له. أنظر ذات اليمين، وذات الشمال، وفي كل الاتجاهات في لحظة واحدة، ثم أكرّر المحاولة مرات، ومرات، لا أملّ ولا أتوقف. أنظر لانعكاس الأضواء على الصخور، والكهوف، والجسور المعلقة في الفراغ، هناك تلاعب بالضوء والظلّ، كأنّ الألوان ممزوجة في تلك الأمكنة النورانية، وضربات الفرشاة ظاهرة.

هل أنا أقف أمام أمكنة وموجودات حقيقية، أم أجدني واقفا أمام لوحة فنية معلقة في صالة عرض؟!

أحب التسكع ليلا في شوارع المدينة، بعد أن تفرغ من ضجيج السيارات وضوضاء البشر، يسلبني هدوؤها وبهاؤها. بقيت لوقت متأخر مختليًا بكلّ هذا البهاء، ولو لم يقو هطول الأمطار، ويقصف الرعد مدويا في السماء كالبارود، وأرى لمعان البرق كشرارة الكهرباء. لما طلبت من رفيق أن يوصلني إلى الفندق.

7

حين استيقظت في الصباح، شعرت بأنّني نمت إلى حد الشبع، ما جعلني أبدو في قمة حيوتي. ينتابك الفرح مع ميلاد كلّ يوم جديد، تحس فيه بالنشاط يسري في عروقك مسرى الدم، ويمنح كامل أعضاء جسدك عنفوانًا، يجعلك تحلّق بأجنحة أسطورية لا يراها أحد غيرك.

أثناء خروجي من الغرفة انتبهت لوجود رفيق بانتظاري، جالسًا في قاعة الاستقبال، وساقاه مفتوحتان، ويسند إحدى قدميه إلى الأخرى، ورأسه غارقة في جريدة عربيّة بين يديه. لا أجيد القراءة باللّغة العربية الفصحى، بالكاد أهجِّي بعض حروف كلماتها. ما سرني، منذ وصولي لِلَبْلادْ، كما يسميها أبناؤها المقيمون في ديار الغربة، أنّني لم أجد أدنى صعوبة في تعاملاتي مع الناس والإدارات، فنسبة مهمة منهم تتكلم الفرنسية بطلاقة أفضل من بعض الفرنسيين أنفسهم الذين ينطقونها بلكنة، والنسبة الباقية منهم تجيد اللّغة الجزائرية الدارجة، اللغة التي كان أبي يتواصل بها معي.

كما أنّني لم أجد صعوبة في الاطلاع على الأخبار، فنصف الجرائد التي تباع هنا باللغة الفرنسية.

عاتبت رفيق على قدومه، فكيف له أن يتخلى عن الذهاب إلى عمله، ويأتي لمرافقتي في قضاء شؤون تخصني. ألححت عليه أن يوصلني فقط إلى حي الفوبور، ويعود أدراجه إلى عمله. لا أريد أن أكون سببا في تأنيبه من قبل ربِّ عمله، أو أن أتسبب له في أدنى ضرر.

لما تحرك محرك السيّارة، اشتغل الراديو تلقائيا. تسرب من مذياع السيّارة صوت جهوري، يغازل المدينة بعربيّة جميلة وشاعرية. كان صوت المذيع له وقع موسيقي خاص، كأنّه لحن مبدع عزفته الطبيعة ذات ربيع. حتى أني من شدة انغماسي في هذا الطقس الصوفي، تمنيت أن لا يتوقف ذاك المذيع عن شذراته ومقاماته المدوخة.

نزلت من سيارة رفيق، وبعد أن ودعته سلكت طريقًا منحدرة بمحاذاة مسجد تظهر براعة تصميمه وجمال نقوشه، لم أنتبه لاسمه. واصلت المسير إلى أن وجدتني مقابل مجموعة عمارات متتالية خلف بعضها، وبجنبها مجموعة أخرى، وهكذا.

يظهر أنّ طلاءها لم يُعَدْ من عقود طويلة، تتسرب من واجهاتها الصحون اللاقطة للقنوات صدئة كبثور أوندوب متقيحة. كما تظهر الملابس في الشرفات وخارجها، موزعة فوق حبال الغسيل كيفما اتفق.

لمحت شابًا يقف بالقرب من سيّارات الحي، يضع يده اليمنى في جيبه وإبهامه خارجه، ويحمل بيده اليسرى عصًا غليظة قمتها متكورة. اقتربت منه، ثم شرعت في سؤاله عن محل إقامة أكبر أعمامي محمد الصالح زهري. قال لي حارس الباركينغ:

– إذا كنت تقصد محمد الصالح الذي يمتلك سيارة شيفرولي رمادية اللون، فإنّه يقيم في العمارة المقابلة، المدخل الثالث من اليمين، في الطابق الثاني.

ما أن رفعت إصبعي على الجرس، حتى فتح لي الباب كهل على أبواب الشيخوخة. عرفت من لون عينية وشكلهما وطريقة استدارتهما، وحجم أنفه وملامح وجهه، أن هناك تشابها يكاد يصل إلى حد التطابق في بعض الملامح، بين ما رأيت وبين وجه أبي.

بدا الرّجل مستغربًا صمتي وتسمري أمامه دون أن أنبس ببنت شفة. حتى لا أزيد في حيرته واستغرابه من سلوكي، شرعت في الحديث:

– عندك أخ اسمه عبد المجيد زهري؟

فتح عينيه على آخرهما متعجبًا وتفرسني من أخمص قدمي إلى قمة رأسي، ونظر مجددًا إلى الأسفل واليسار، كأنّه مستغرق في التفكير، أو يحاول أن يستذكر شيئًا ما. ثم قال:

– من أول ما سمعت نبرة صوتك، أحسست برنته تخترقني، وتمضي بنورها إلى أعماق أعماقي المظلمة. بقيت أضرب أخماسا في أسداس، علّني أصل إلى رابط ما يرشدني كي أمسك بتلك الحقيقة التي بين أصابعي، وأنا لا أهتدي إليها. إلى أن تفوهت باسم أخي عبد المجيد دون أدنى تردد أدركت أنّك ابنه. الابن سر أبيه.

لم أصدِّق حكاية إعدامه من قبل الخاوة في الجبل، تلك الحكاية التي صدقها الجميع بعد أن أصبح أخي من المفقودين، ولم يظهر له أدنى أثر. كان عندي إحساس قوي يخبرني بأنّه حي يرزق. على الرغم من أنّني أفقد الأمل أحيانًا في وجوده على قيد الحياة، وتعاودني لحظات الشك والريبة، لأنّني لم أسمع أي خبر عنه، ولم ألمس له أي أثر يدل على وجوده منذ عقود، ولا حتى رسالة تصلني بخط يده تطفئ نار السؤال وحرقة الغيَّاب، هل هو غياب الأحياء أم غياب الأموات؟

لكن دوما كنت أشعر بنبضه وضحكاته، وأحس بحركاته وسكناته، ومرجه وهرجه، في مكان ما من جهات الأرض.

إحساسي لم يخيبني قط.

مذ جلس بجنبي على الكنبة، لم يرفع يده اليمنى من على كتفي، وأستمر في مواصلة الحديث الذي شرع فيه دون انقطاع، فقد فتح أبوابًا وأقواسًا في الحديث لا نهاية لها.

فبالإضافة إلى أناقته في اللباس، وأحذيته الملمّعة بعناية، واهتمامه بتشذيب شواربه، فهو متحدث بارع، لا يملّ المستمع مهما طال جلوسه إليه، من الإصغاء بشغف إلى كلماته وسرده للأحداث

بطريقة لا تخلو من المتعة والتشويق. ولأنّني كنت مهتما بكل كلمة كان ينبس بها، تركت له الحابل على الغارب، ولم أشأ أن أغيّر مجرى حديثه، فكنت واضعًا رأسي على يدي، وسبابتي على عظمة وجنتي، مبديا انتباها واهتماما بكل كلمة كان يتلفظ بها. فكنت أستمع وأصغي، وكان هو يحكي ويروي، وفي الحقيقة كان يروي عطشي بكلماته. وكأنّ كلّ كلمة كان يتفوه بها كقطرة ماء ساعة الهجير في الربع الخالي من الصحراء:

– لو حملتك رياح الأقدار قبل الآن يا ابن أخي، لكنت عرفت رشيد، كم كان متمردًا وصعب الإرضاء، كان لا يرضى بأنصاف الحلول وبالفتات. أنفته فوق كل شيء، يعبر عن رأيه أو ما يعتقد أنّه صواب أمام الملأ، لا يأبه من ذوي السلطان والنفوذ، ولا يخشى في الحق لومة لائم.

لا يحب الظلم والحقْرة، وقد تدمع عينه لمجرّد رؤية طفل يتيم بائس سَرَقت منه الحياة بسمته، أو خبزته، أو حقه في التعليم أو في الصحة أو في الكرامة. كان يذرف الدمع عندما يصادف في طريقه مسكينا يتدثر بالكارتون، في زاوية أو تحت سقف مرفق عمومي بات على الطوى والجوع ولا أحد يسأل عنه.

كما كان يحمل همّ المفصولين من عملهم تعسفًا، الذين تمّ خداعهم ببضعة دنانير للخروج الطوعي من الشركات والمؤسسات. وكان يتذمّر مع من لم ينصفه بعض القضاة المرتشين في استرداد حقه، بسبب العوز أو الجهل أو ضعف الحيلة.

فقد كان يحمل هم الجميع.

كان منضبطا ويحب الإتقان والدقة في العمل، وفي جلّ ما يحيط به، يغضب من سلوكيات الموظفين الكسالى، والمقصرين، والمتراخين، وغير المبالين. ويتذمّر من استبداد رؤسائه ومديريه في الرأي وفي الإدارة والتصرف. وكان يمقت المسؤولين الإداريين الذين

يستغلون مناصبهم للثراء أو للتقرب من ذوي الجاه وأصحاب القرار السياسي.

صراحته سببت له الكثير من المتاعب، وانتقاداته المتكررة حمّلته عواقب وخيمة، دفع ثمنها باهظًا.

عيبه الوحيد، أنّه يعيش على معايير المدينة الفاضلة، التي تقبع في قمة رأسه، ولا يراها أحد غيره. فلم يكن يقبل بأدنى انحراف، ولم يرض بأيّ خلل أو تهاون.

حاولت أن أساعده أكثر من مرة، أن أمسك بيده وسط هذا الظلام البهيم، الذي لا يُفَرَّقُ فيه بين البغال والأحصنة، بين العملة الجيدة والعملة الرديئة والمزورة، بين الذكور والرجال.

أخبرته أنّنا في بلد، يمجّد فيه الأموات، ويداس فيه على كرامة الأحياء.

لا يحبون من يخرج عن السرب، لا يحبون من يتكلم بغير لغتهم، لا يحبون الرّجل، يحبون المتزلفين، والقوادين، والمنافقين، والطحاحنة، والرخاس، وآكلي الجيفة.

يجب أن ينضم الجميع للقطيع.

هؤلاء بإمكانهم قتل حتى الأنبياء والرسل.

حذّرته أكثر من مرة، لم يسمع كلامي، راسو خشين كأنّه قُدَّ من حجر. ورث أنفته تلك وحِدَّته وصرامته عن أبي رحمه الله.

لا أصدقاء له، عدا صديق واحد، درس معه في ثانوية أحمد رضا حوحو، ثم بعد البكالوريا افترقا. لمين اختار تخصصًا في الحراش بالعاصمة، وعمُّك رشيد اختار شعبة علم اجتماع العمل في جامعة منتوري هنا في قسنطينة. كانا قبلها لا يفترقان، طالت فترة انقطاعهما عن بعض لأن لمين سافر إلى أمريكا لمواصلة دراساته العليا.

بعد مضي سنوات عاد لمين من متشيغان، وعادت لقاءاتهما، كأنّ تلك السنوات التي قضياها بعيدًا عن بعضهما، لم تغيرهما قيد أنملة.

عمّك رشيد كان يتنقل من شركة إلى أخرى، ومن مرفق عمومي إلى آخر، ومن منصب إلى غيره، لأنّه لا يستقر في عمل واحد، بسبب آرائه، ومواقفه، وانتقاداته. كلّ مرة ينتقل إلى عمل جديد ومكان جديد.

كان يرى في لمين نفسه، كما أنه واقف أمام مرآة، يرى فيها انعكاس شخصيته، وطباعه، وإرادته، وحلمه وجنونه.

دومًا ما كنت أصادفهما معا، صداقتهما كانت متينة جدا، لم تفلح سنوات غربة لمين في زعزعتها كما أخبرتك، لأنّه كان يجد في لمين توأمه الذي منحته إيّاه الأقدار، فقد كان يجد فيه السلوى من بؤس الحياة، ويأنس برفقته من وحشة الناس وتغير طباعهم.

صداقتهما كانت تمنحهما نفسًا جديدًا، للصمود ومواجهة تكاليف الحياة.

عيب رشيد، الذي حدثتك عنه، وَلَّدَ له عيبًا آخر، ليس أقل خطورة، كان عيبًا قاتلًا.

فأغلب أسباب البلاء الذي أصابه في مجال عمله، والذي وقف كحجر عثرة أمام استقراره الوظيفي، وترقيته إلى أرقى المناصب، تعود إلى مقارنة نفسه مع مديريه ورؤسائه في السلم الوظيفي.

فقد كان كثير التذمّر، في كل موقع عمل يضع ركائبه فيه، لا يتقبّل أن يرأسه شخص لم يكمل دراسته، أو شخص أقل منه كفاءة أو مهارة. وهو ما يجعله دومًا يعيش في متاهة لا نهاية لها، حالما يخرج من واحدة تصادفه الأخرى، وهكذا دواليك.

لكن صداقته مع لمين كما سبق وأخبرتك، كانت تمنحه القوّة، وتجعله يقاوم عواصف اليأس التي تعصف به، بين الفينة والأخرى. جلساتهما ولقاءاتهما المتكررة كانت بمثابة العزاء، تمنحه طاقة إضافية للمواجهة والتحدي.

حتى صديقه لمين لم يكن حظه جيدًا مع الحياة، بعد أن رجع إلى الوطن بعسر. علمًا أنّه عندما كان يقيم بامريكا كان ممنوعًا من

السفر إلى خارج أمريكا والعودة إلى الجزائر، بسبب دقة وحساسية تخصصه. لقد حصل على كل التمكين في عمله هناك، وضعت تحت تصرّفه كل الإمكانات البشرية والمادية والتكنولوجية والمالية. وفروا له المناخ المحفز للعمل والمشجع على البقاء في أمريكا.

اضطر أن يغادر بحيلة، حيث أرسلت له شهادة وفاة أحد أقربائه من الأصول، وبعد أخذ ورد، تم منحه عطلة قصيرة.

لكنه غادر ميتشيغان من دون رجعة. عندما سافر، كان حلمه أن يساهم في بناء وتنمية وطنه، كان يؤمن بأنّه خلق لأن يخدم وطنه، لا خدمة أوطان الناس.

في بداية الأمر وظف في شركة عمومية متعسرة ماليًا، لكن بين الفينة والأخرى يضخ فيها من خزينة الدولة مئات الملايير من الدينارات، تذوب كل تلك الأموال على ضخامتها في ممارسات وسلوكات المديرين والموظفين الفاسدة. ثم تتراكم ديون المؤسسة، ويعاد مسحها من جديد، وهكذا ظلت تلك الشركة قائمة إلى اليوم بسبب الريع.

لم يحتمل لمين أن يبقى سجين مكتب من أربعة جدران، مكتوف اليدين، لا فعالية له، ولا دور له، غير الختم على الوثائق الإدارية، وكتابة تقارير روتينية عن أمور تشغيلية. لم يترك له المجال لإيجاد حلول إستراتيجية وابتكارية، بإمكانها إحداث نقلة نوعية في الشركة ككل.

لذلك قرر الاستقالة برغبة منه.

حاول البحث عن عمل آخر يليق به وبتكوينه، لم يحالفه النجاح.

ساءت أوضاعه أكثر، ولم يتقبل الحال التي وصل لها.

لم يتوقع أن يكشر الوطن على أنيابه في وجهه، وهو الذي ترك كل شيء خلفه في ميتشيغان من أجل شيء اسمه وطن. لم يظن أنّ هذا الوطن عندما يجوع، أول ما يفكر فيه هو أكل والتهام أبنائه

بشراهة منقطعة النظير. لم يخطر بباله أن يكون ضحية لحب وطنه، لم يحسب لهذا اليوم أيّ حساب.

كأنّه رُمي به من أعلى منحدر، كشيء تافه لا قيمة له، كلما نزل أكثر زادت سرعة دورانه نحو الهاوية.

لم يدخر عمك رشيد أي جهد لمساعدة صديقه لمين، فقد بذل كل ما في وسعه وأكثر. توسط له في مديرية الغابات مع صديق قديم، فحصل على عقد تشغيل مؤقت في إطار برنامج الرئيس، يحصل من خلاله على دنانير معدودات، ذاك النزر القليل من المال لم يوفر له أدنى متطلبات الحياة البسيطة.

هكذا ترمي الأوطان بأبنائها البررة في جرف هار، إلى الجحيم. بينما يعيش في خيرها السراق، واللصوص، والجبناء، والخونة، والأبطال المزيفون.

حزن عمك رشيد لأجله، فكان دائم التفكير في رفيق طفولته، وكان الألم ينخر أعماقه من الداخل، لأنّه لم يقو على مساعدة لمين، لأنّه لم يستطع أن يفعل له أي شيء يخرجه من أزمته.

إلى أن وصل ذلك اليوم، الذي انتهى فيه كل شيء، ذات يوم علم في شهر أفريل. تعرف يا ابن أخي، أن هذا البلد يحتفي بالموت لا بالحياة، فكما أخبرتك أنه يدوس على الأحياء ويكرم الأموات.

ها هو مرة أخرى يكرس نفس القاعدة. قادته الميامين حددوا تاريخ موت رئيس جمعية العلماء المسلمين عبد الحميد ابن باديس، التي ظهرت بعد 1931 للتوعية وإصلاح أفراد المجتمع من التجهيل الذي لحق الفئة الغالبة منهم، كيوم للعلم يحتفل به كل عام.

ذات يوم علم الموافق لـ 16 أفريل قبل عشر سنوات ونيف، وأثناء زيارة فخامة الرئيس إلى قسنطينة، كانت صور الرئيس والأعلام تملأ شوارع وأحياء المدينة. وقف لمين أمام صورة من صور الرئيس المعلقة، تأملها مليا بعينين متعبتين، كأنّه يريد أن يتحقق من شيء

مبهم أو استسلم لذكريات وصور بعيدة وقريبة. ثم مضى إلى أقرب جسر، رمى بجسده المنهك من جسر الملّاح.

قذف بجسده المتعب في الفراغ، لم يسمع أحد صُراخه، أو صدى ارتطامه، لأنّ الفراغ مهول، والقاع سحيق، والعالم أصم وأعمى. العالم ذاته المنتشي بزيارة الرئيس. ضاعت صرخته في التصفيقات والتطبيل والأهازيج والزغاريد. الشعارات والخرافات كالهواء يتنفسها الناس هنا بعمق. الزعماء الملهمون وصلوا إلى هرم السلطة بالدسائس، والمؤامرات، والانقلابات، ها هم يستمرون في حكمهم هذا الشعبَ المغلوب على أمره، بالشعارات الجوفاء، والخطابات الديماغوجية ذاتها. المحيطون بهم ينفخون فيهم حتى يبدون كعمالقة وعظماء وملهمين وآباء لكل أبناء هذا الوطن اليتيم. يعيش هذا الشعب خرافة النظام القوي، وخرافة الرجل القوي، والقائد الملهم.

ليس لمين وحده من اختار نهايته المأسوية تلك عندما انعدمت الحلول. مستحيل أن أنسى صالح زايد، حاصروه من كل الجهات، لأنّه كان يتكلم بجرأة وبدون رهبة عندما كان يصمت الكل خوفًا وتزلفًا. كنا وقتذاك نتداول على قراءة مقالاته وأرائه الحرة بكل عزة، وكثيرًا ما كنا نتناقش كتاباته ومساهماته في جلساتنا وخلواتنا. كنا معجبين به أيما إعجاب، لأنه كان يعبِّر بصوت مسموع عن صوتنا المخنوق، عمّا كنا نخشى قوله أمام الملأ. كتب صالح قبل رحيله رواية اختار لها عنوان «الانتحار!!»، لم يكملها، ولم يُكْتَب لها الطبع. لكنه في سنة 1989 ميلادية اختار نهاية أخرى لروايته تلك، أكملها بصورة تراجيدية موجعة، حيث رمى بجسده من جسر سيدي راشد، هوى الجسد بما أثقله إلى وادي الرمال السحيق، وحلقت روحه في سماء سيرتا معانقة الطيور الحرة. سيرتا المدينة التي لم تر النور، مذ خطف الوطن من عَقَّهُ وأذاه، كأنّها منذورة للخسارات الكبرى، كأن الأقدار عاقتها، وعاقبتها بذنب لم ترتكبه، كأنّها مدينة ملعونة، لحقها غضب علمائها وصلاحها.

المثقفون والشعراء هم روح المجتمع ونبضه، هم أصوات الشعوب المقهورة، متى حوصرت الحريات وصودرت الآراء، متى توقف النبض الحي. الأسباب ذاتها تدفعهم للمصير ذاته. أتذكر تمامًا الشاعر فاروق أسميرة الذي انتحر من جسر سيدي مسيد عام 1994 ميلادية. كما أنّني لا أقوى على مجرد التفكير في الشاعرة الفرنكوفونية والصحفية البارزة صافية كتو، التي اختارت جسر تيليملي بوسط العاصمة ذات شتاء من عام 1989.

فجأة وقف من مكانه، ثم مشى باتجاه المكتبة، توقف أمامها برهة زمن كأنّه يبحث عن شيء ما، اختار كتابا متوسط الحجم باللّغة الفرنسية، وسحبه من الرف برفق. رجع إلى مكانه ممسكًا بالكتاب، لم يجلس، ظل واقفًا. فتح الكتاب على صفحة مطوية على طرفها العلوي، ثم قرأ:

أتوق لوطني أن يكون حرًا/

مثل عصفور حر/

لا أطيق تحمله مكبلًا/

أتوق لوطني أن يكون سعيدًا/

لعل أطفاله يولدون وسط الأغاني...

حاولت جاهدًا أن أقرأ عنوان الكتاب وهو بين يدي عمي، لم أفلح في فك حروفه القليلة المتفرقة التي ظهرت من بين أصابع يديه. تمكنت فقط من رؤية جزء من طرف غلاف الكتاب كتب عليه صافية كتو.

كنت أصيخ السمع لعمي محمد الصالح كأنّ على رأسي الطير. كأنّني أمام أحداث أسطورية خالدة، أو جالسًا أمام مشاهد فيلم سينمائي.

ألهذا الحد يعيش الناس ظروفًا تراجيدية قاهرة؟

ألهذا الحد تضع الشعوب رقابها تحت سيف جلاديها مستسلمة مستضعفة؟

ألهذا الحد يدفع الأحرار ثمن تخاذل الجميع؟

ألهذا الحد تقع الشعوب في فخ خرافة تلك الشخصيات الخرافية، التي تكبس على أنفاسهم وتقبض على أرواحهم وأرزاقهم؟

تلك الوجوه أشبه بالفزاعة التي تنصب في الحقول، لتخويف الطيور وثنيها عن التقاط البذور وإفساد المحصول.

الفزاعة التي تستهوي الغربان حولها، لا روح فيها، عدا القش.

هل يخاف النّاس من القش؟

لماذا أتذكر، الآن، ما قرأته قبل سنوات على صفحات صحيفة لوموند؟ خبر ملك إفريقي يقود أكثر من مليونين من البشر من بلد أوروبي عبر السكايب. وكيف يصل الوهم بهؤلاء أن يؤمنوا بخرافة هذا الملك؟ الذي هو في حقيقة الأمر مجرد مصلح ميكانيكي للسيارات، مقيم في مدينة ألمانية لا أتذكر اسمها.

هؤلاء الأقوام كأنّهم مهيؤون جينيا ومفطورون على الإيمان بخرافة الرجل القوي!!

لغرابة الخبر حفظت اسم هذا الملك، «توغبيه نغوريفيا سيفاس كوسي بانساه». الحكاية أنّ هذا المواطن الألماني الجنسية، ورث العرش بعد وفاة جده ملك شعب الأيو في نهاية الثمانينيات، ولأنّه هاجر إلى ألمانيا في بداية السبعينيات من القرن الماضي، اضطر إلى حكم شعبه في غانا والطوغو عبر السكايب. ويخصص هذا الملك الغريب سبعة أو ثمانية أيام سنويا، على ما أتذكر، لزيارة مملكته.

كنت سارحًا في قصة ذاك الملك الغريب، وعيناي مصوبتان نحو مكتبة الخشب الأحمر الصلب، التي سحب منها عمي الكتاب. أعجبتني طريقة ترتيب محتوياتها، أرى أن المجلدات والكتب والمجلات رصفت بتنسيق أعطاها منظرا فريدا.

واصل عمي حديثه بنفس الرغبة والحماس، وواصلت متابعته برغبة أشد وبحماس أكبر:

– بعد سنة من موت لمين مرير عالم الفيزياء النووية بالتمام والكمال، كان يوما ربيعيا مشرقا، استحم رشيد، وتعطر، ولبس أفضل ما عنده، وخرج.

ظننت أنّه استعاد رغبته في الحياة، وخرج من دائرة اليأس التي أدخله فيها موت صديقه. وأنّه راجِعٌ لمنصب عمله الذي تركه من فترة. فقد كنت بين الفينة والأخرى أضع له شهادة طبيّة يحررها لي طبيب شاب، وهو في حقيقة الأمر ابن صديقي عبد الباسط. كي لا يُطرد عمك من عمله.

فرحت لأجله ذاك اليوم كثيرًا، لكن فرحتي تلك لم تدم طويلا. فهناك دومًا من يسرق أفراح الناس، حتى من يضحك، ويغتبط في هذا البلد، يخاف أن تكون فرحته تلك نذير شؤم، فيقول: «يا رب اجعلها ضحكة خير»، درءا لكل شر قادم من باب تلك الفرحة المشرع على مصراعيه.

لم يطل الأمر كثيرًا، ذلك اليوم، وأتتني الأخبار المفجعة تَتْرًا:

فقد رمى رشيد بنفسه صوب قطار نقل البضائع، المتوجه نحو محطة سيدي مبروك. لقد اختار طريق عبد الله بوخالفة...

لم يكمل عمي جملته تلك، حتى شهق شهقة تقصم الحجر الصلد، وتجعله يئن أنينًا يتمزق له القلب. وراح يبكي في حضرتي كطفل صغير.لم أقو بدوري على التماسك، فقد بذلت قصارى جهدي كي احبس دمعي في مقلتي، لكن منظر عمي وهو يبكي أفقدني كل جلدي الذي حاولت أن أظهر به. لا أذكر أنّني بكيت في حياتي كمثل هذا اليوم.

8

كلّما هممت لسفر ما أو رحلة ما، تعودت أن أحضر معي بعض الأدوية، وبالذات أدوية الصداع والآلام والإسهال. ودومًا ما كنت أستهلك أغلب حبات الدياغيل، لأنّني في العادة أحتاج بعض الوقت للتعود على النظام الغذائي السائد.

ففي أسفاري وتنقلاتي المختلفة كنت دومًا ما أبحث خلف الروائح الشهية، عن اكتشاف الأطعمة والمأكولات الشعبية، التي تعكس ثقافة المكان.

الأمكنة في نظري، بناسها وروائحها وعطورها وعاداتها، عدا ذلك تفقد الأمكنة رمزيتها وفرادتها ووجودها ككل، ولا يمكن حينها استعادة تفاصيلها ولملمة صورتها.

أذكر، ذات مرة في منغوليا، بعد تناول صحفة حساء تسبح فيه الخضار وفواكه البحر، كدت أن أقذف بأمعائي خلف بقايا الأكل من شدة التقيؤ. كما لا أنسى ما حدث معي، ذات خريف لما كنت مارا بأحد شوارع مومباي، كان الجو حينذاك يعبق بروائح البهارات، احمرت عيناي وبدأ أنفي يرشح ودخلت في نوبة تناوب علي فيها كل من العطس والسعال، لو لم أشرب من قارورة الماء التي كنت أحملها في حقيبة الظهر، وأخرج من ذاك الشارع هرولة، لكانت العواقب وخيمة.

اليوم أحسست ببعض الانقباضات في معدتي، وآلام حادة في بطني، إلى أن شعرت بأمعائي ومصاريني كأنّها تتقطع من شدّة الأوجاع. مع وضعي ذاك، لا مجال كي أصمد لوقت أطول في مواصلة الإنصات والتظاهر أمام عمي بأنّني بخير.

دون تردد استأذنت للدخول لبيت الراحة كي لا أفعلها في ملابسي، دومًا ما تأتي المفاجآت غير السارة دون موعد مسبق، لتفسد عليك جلستك، أو موعدك، أو لتنسف بكل ما رتبته أو خططت له.

هل هذا وقت مناسب الإسهال؟

ولماذا بالذات الآن؟!

بعد أن قضيت حاجتي، شعرت براحة كبيرة. لما كنت أمشي في الرواق انتبهت لخروج شاب يتثاءب من غرفة في آخر الممر على اليمين، لاحظت من ملامح وجهه أنّه استغرب وجودي في البيت، قد يكون تساءل بينه وبين نفسه عن هوية هذا الشخص الذي يصول ويجول في رواق بيتهم دون مرافق.

لم أعره أدنى اهتمام، عدا ابتسامة سريعة من شفتي، تقتضيها اللباقة، قابلها بملامح باردة، فما كان يشغل بالي لحظتها أنّني ما صدقت أنني تخلصت من ورطة الإسهال. لكن لاحظت أن عينيه يتبعانني من الخلف. عينان منتفختان أسفلهما مساحة شبه زرقاء، يبدو أنّه ينام في وقت متأخر من الليل، لذلك نهض في هذا الوقت والنهار يكاد ينتصف.

لم أكد أصل إلى قاعة الاستقبال، حتى سمعت ضجة أثارها غلق الباب الحديدي الخارجي، على ما يبدو أنّ أحدهم دخل أو خرج. قال عمي كاسرًا تخميناتي تلك، كأنّه دخل إلى رأسي وعرف بما يجول فيه:

– إنّه مبروك خرج قاصدًا المقهى. لا يستفيق إلا بفنجان قهوة يعصرها له صاحب المقهى إبراهيم بالذات، ثقيلة وقاتمة كالقطران يطفو فوقها السّكر من ثقلها. هذا الابن الوحيد الذي خرجت به من

الدنيا قبل استئصال رحم زوجتي حورية. لا تصدق كم أتعبني التفكير في مستقبله، وما يؤلمني أكثر هو لامبالاته بحياته وعدم اهتمامه وإدراكه لعواقب سلوكاته المتهورة تلك.

هو ثمرة دلال أمه وأخواله، تراه ابنها الوحيد، ولا يصح في نظرها تأنيبه أو رفض طلباته الملحاحة. أخواله من عائلة بن شيخ المعروفة، هم ميسورو الحال، أغدقوا عليه بالمال والهدايا دون أدنى حساب لمآلات الأمور ونتائجها.

يسهر طيلة اللّيل مع مشاهدة مباريات كرة القدم، ويقضي نصف يومه أو يزيد في النوم والنصف الباقي في المقاهي مع شلّته. لا يفكر بمصيره ولا يعطي بالًا للعمل، حاولت أن أتوسط له للتوظيف، لكنّه لم يخلق للعمل فجيوبه مليئة بالنقود، يأمر فيطاع، يطلب فينفذ طلبه في الحين.

همه الوحيد كرة القدم، ومتابعة مقابلات أهم النوادي الأوروبية العريقة وأخبار أشهر لاعبيها. كرة القدم أفيون الشعوب. الجميع هنا مخدّر بها، يتخاصم البعض ويتعادون لأجل نتائج مقابلة كروية. بل هناك من يموت بالسكتة القلبية بسببها.

تنخفض أسعار البترول، تُختلس الأموال، تُزَوَّر الانتخابات، تنخفض قيمة الدينار، تفوح روائح الفساد، البلد ينهار، يحدث فيضان أو زلزال أو إعصار، أو ينفجر بركان. لا أحد ينتبه أو يبالي.

ما يهم أن لا يخسر الفريق، أن يرتفع رصيده من النقاط، أن يعتلي دوما الترتيب، أن يواصل صعوده وانتصاراته. كادت أن تحدث حرب بين مصر والجزائر بسبب مقابلة كرة القدم.

تنفق مئات الملايير من الخزينة العمومية على الفريق الوطني، لاستجلاب اللاعبين ذوي الأصول الجزائرية من أرقى الأندية الأوروبية.

يحاط الفريق الوطني بأهم الكفاءات الوطنية المقيمة في البلد أو في الخارج، والأجنبية، في حين لا تستجلب مثل تلك الكفاءات

والمهارات، لإدارة الهيئات والمرافق الحكومية، والمؤسسات العمومية العاجزة عن الحركة.

يستوردون اللاعبين، ولا يستوردون الكفاءات المهاجرة.

يستقدمون الأقدام والأرجل من كل جهات الأرض ويطردون العقول المنتجة.

مبروك ابني لا شغل ولا مشغلة، غير حكاية الجلد المنفوخ. العام الماضي انتخب كرئيس للجنة أنصار ومشجعي فريق ريال مدريد في الجزائر. تمنح له بالمجّان تذاكر السفر والمباريات، من مرة إلى مرتين في السنة. يجمع المناصرين في المدرجات الجامعية والقاعات الكبرى لمتابعة مباريات ناديه الإسباني، يوثق بكاميرا تلك اللحظات، ويرسل الفيديوهات إلى موقع النادي.

يحتفل مع شلته بانتصارات ناديه، يخرجون جماعات بالسيّارات، وتعلوا أصوات المنبهات والأبواق، والموسيقى، والأغاني، مع أصوات تفجير المفرقعات، وإطلاق الألعاب النارية، والضوئية، في سماء الشوارع والطرقات. الجميع يرتدي كنزات وألبسة رياضية لفريقهم المفضل، يحدثون جلبة كبيرة بسلوكاتهم تلك، مستعدين للعراك مع كلّ من يقف أمامهم، أو يعترض طريقهم، أو يستفزهم بفريق آخر منافس لفريقهم.

حياة ابني كلّها خواء وضياع، يجري خلف سراب الكرة التي لا طائل من ورائها. تعرف أن رفاقه ينادونه مبروك الريّال، نسبة إلى النادي الرياضي الذي يناصره.

سفينة العمر تمضي به في أمواج الحياة المتلاطمة، لا تصمد وتنقلب، هو يغرق ولا يدرك ذلك، يقول لمن يرقبون جسده وهو يستسلم للغرق: ما أحلى العوم.

في الواقع بتُّ لا أهتم، من سنوات طويلة لم أعد اخذ كل الأمور على محمل الجد. الأوضاع ساءت لدرجة أنّ وعاء التحمل لم يعد يتسع

أكثر. لا تجد النفس أكثر من السخرية كعزاء لها، وكطريقة من طرق المقاومة تستعمل فيها سلاح التهكم والاستهزاء من وضع بلغ مداه.

تسعفنا السخرية كأسلوب بليغ وطريقة انتهجها الأقدمون قبلنا، من ابن المقفع الذي سخر من الوضع السائد وقتئذ على لسان الحيوانات، وكذلك أصحاب المقامات الذين انتقدوا الواقع المتردي آنذاك خلف قناع الفكاهة والتنكيت، وغيرهم. فعندما تُعدم كل الحلول وتستحيل كل طرق المقاومة، لا نجد أمامنا أكثر من السخرية من واقعنا العبثي، ومن كل ما يحمله من تخلف ومرارة.

نحارب النقيض بالنقيض، كآخر وسيلة متاحة لنا للبقاء أحياء في زمن «يموت فيه الأحياء ويعيش فيه الأموات».

كي لا نموت كمدًا وقهرًا، وكي لا يهزمنا بؤس الواقع، نسخر منه ونتهكم من كل شيء يحاول فرضه علينا. كي لا نترك له فرصة الانتصار علينا، نحوّل التراجيديا المحيطة بنا من كل الجهات والمتربصة بكل الآمال والطموحات إلى كوميديا، نضحك من خلالها على كل الخيبات والنكسات. بتلك الابتسامة (المتشبثة بالوجود والاستمرار) في واقع كاريكاتوري بائس نحرمهم من لذّة الانتصار علينا.

حقيقةً هذا الواقع بكل متغيراته، وبجميع الأطراف المكونة له، والمتفاعلة فيه، مضحك لحد الهستيريا.

واصل عمي سرد حكاية العائلة من ألفها إلى يائها، غارقًا في تفاصيل التفاصيل، كأنّه بصدد إلقاء أو تدوين شهادة تحفظ تاريخ وإرث عائلة زهري. كنت أصيخ السمع وكلّي اهتمام، عسى ألّا تفوتني أي شاردة أو واردة.

انتظرت أن يتكلم عن سليم، ذكر جلّ الأسماء إلّا هذا الاسم لم يتلفظ به!

لما سألته عنه، أخبرني بأنّه وضع أمامي شجرة العائلة بكل أغصانها وفروعها الحيّة وأوراقها المتساقطة. وعندما لاحظ إلحاحي،

أكد لي بأنّه حضر تقريبا ولادة جلّ أبناء إخوته وأخواته، وشهد ختان الذكور، وحفلات الزواج، وغيرها. لكنه أردف:

– عائلة زهري كبيرة وموزعة على مناطق مختلفة من الوطن، ومن الصعب حصر ومعرفة كلّ أفرادها. لقد تغيرت الأمور فالجيل الجديد في عائلتنا المصغرة لا يهتم وغير مبالٍ بمعرفة أقربائه، سيأتي عليهم زمان لا يلتقون فيه، لا في الأعراس ولا في الجنازات، ستفقد أفراحهم طعم العائلة وستمرُّ أقراحهم بدون أي مؤازرة أو ودعم عائلي، سيعيشون الغربة وهم بالقرب من بعضهم البعض!

حكّ عمي رأسه كأنّه تذكر للتوّ شيئًا مهمًا، ونظر إلى الأسفل واليمين، وطوى يديه المكشوفتين تحت ذراعيه. بينما كنت أنا أنظر إلى وضعية عينيه علّني أستنتج ما يفكر به. ثم تكلّم بلغة كأنّها تحفر في جرح غائر في جسد العائلة لم تشف من وجعه بعد:

– لم نتحدث عن عمتك الطاوس، مضت سنوات طويلة مذ تمزقت صفحتها من الدفتر العائلي، كان خيارها، لم تسمع رأينا، لم تصغ لنا، ركبت رأسها وداست على كلامنا بقدميها، مرغتنا في التراب أمام خلق الله، أضحكت علينا الناس، استشفى فينا الأصدقاء قبل الأعداء. نعرف عنها أنّها تقيم في عنابة. عدا ذلك لا نعرف أدنى معلومة عن عنوانها ومحلّ إقامتها.

فمنذ أن أصرت على الزواج من أستاذها الذي يكبرها يوسف خوجة، وهي في بداية دراستها الإكمالية. وبسبب عدم قبولنا فكرةَ زواجها جملة وتفصيلًا التجأت إلى خالي الداودي رحمة الله عليه، الذي قبِل أن يكون وليَّها في ذاك الزواج. الذي لم يحضره أحد منا نحن إخوتها وأخواتها.

بعد أن تزوجت به، أقامت سنة ونصف في منزل وظيفي في جبل الوحش. بعدما حُوِّل زوجها للعمل في عنابة رحلت معه. كما سمعت من شخص كان يعمل مع زوجها التقيت به دون موعد مسبق. لما

دخل مكتبي طالبًا مني مساعدته في تسريع ملفه، معرفا نفسه بأنّه زميل سابق لنسيبي يوسف خوجة. استغليت الفرصة كي أسأله عنه. أخبرني أن التواصل انقطع بينهما من عقود، ولم يسمع أخباره مذ ذَّاك الحين، عدا أنّه يعرف أن يوسف خوجة يقيم بالمدينة القديمة بعنابة.

كنت مركزا بصري على أنف عمي، ومبديًا اهتمامي بحكاية عمتي الطاوس، التي أخذت خيالي يسرح بعيدًا إلى أشهر قصة حب مأسوية عرفتها فرنسا في القرن الثاني العشر، بين الأستاذ الفيلسوف أَبيلاَرْ وتلميذته إِلُوويزْ. فكلّما مررت بمقبرة بَارْلاَشَازْ في باريس وقفت أَمام قبرهما المشترك الذي جمعهما بعدما فرق بينهما في الدنيا عمها الكاهن فِلْبَاغْ.

نظرت إلى ساعة يدي. تفاجأت بتقدم الوقت، كيف مر بكل هذه السرعة دون أن أشعر به. عندما يحضر السرد يتوقف إدراكنا لمفهوم الزمن. يذكرني هذا بلعبة السرد والحكي التي أبهرت الملك، الملك الذي كان كل ليلية ينهي حياة امرأة، السرد الذي نسجته إحداهن، لحماية نفسها وبنات قومها، السرد كطوق نجاة من ملك مستبد برأيه، أبهرته شهرزاد بنفسها الطويل وببراعتها في صك الحكايات ورصفها بتتابع منقطع النظير، تلك الحكايات التي بقيت مطبوعة في الذاكرة الإنسانية كتراث أدبي عريق. السرد جعل شهريار أسيرًا للكلمات، كان دوما ما يترقب المزيد، وهو كلّ ليلة كالغريق في قلب الحكاية، طيلة ألف ليلة وليلة وهو ينتظر غير مدرك مرور الزمن.

تأخر الوقت كثيرًا، كان يجب علي أن أغادر، لقد اتصلت بي نور اليوم قبل منتصف النهار تعلمني أنّنا مدعوان أنا وهي لمأدبة عشاء في بيت خالها بلقاسم الليلة.

لحظة خرجت، وقع نظري على مبروك،كان مسترخيًا على كرسي خشبي خارج مقهى متواضع وساقاه مفتوحتان، كان يمسك بفنجان القهوة بأصابع يده اليسرى، ويخرج سيجارة من بين شفتيه

بيده الأخرى، ويتكلم، ويحرك يديه صعودًا ونزولًا، ويضحك بصخب، ويبحلق بطرفي بصره في الغادي والرائح. يقوم بعشرات الأشياء في الوقت ذاته، وهو في حقيقة الأمر لا يقوم بأيّ شيء يستدعي الاهتمام. لاحظت أنّه انتبه لخروجي من العمارة، ظلّ يتعقبني بخبث، كان يعتقد أنّني لم ألاحظه.

على الرغم من ارتفاع منسوب البؤس والشقاء في هذا البلد، وما يعانيه البشر هنا، وما يكابدونه من طلوع الشمس إلى غروبها من أجل الحياة بكرامة. فدومًا ما يجدون أنفسهم يبحثون عن حياة يتوفر فيها الحد الأدنى من إنسانيتهم، لذلك تراهم يرضون بالنزر القليل الذي يضمن لهم الحفاظ على كرامتهم المهدورة في وسائل النقل المتهرئة، والخدمات المتردية، والمرافق العمومية البائسة، والإدارات البيروقراطية، والمستشفيات الموبوءة. على الرغم من كلّ ذلك، لازالت الأجواء العائلية الحميمة حاضرة في المناسبات السعيدة والأفراح.

قضيت وقتًا ممتعًا في بيت خال نور، كانت فرصة ثمينة لأتعرّف على أفراد عائلتها الذين دعاهم خالها بلقاسم إلى مأدبة العشاء. استمتعت بالجلسة العائلية، وببهجة الأطفال الصغار وهم يلعبون ويتقافزون، وبالحكايات المشوقة على لسان كبار السن الذين استذكروا أيّامهم الماضية وزمنهم الجميل وتفاصيل الأمكنة التي مروا بها. هذا الجو فتح شهيتي على الحديث وعلى الأكل على حد سواء.

9

كنت أذرع المكان جيئةً وذهابًا، أتمشَّى بمحاذاة الفندق وصولًا إلى بناية المسرح، امرأة متشردة ملفوفة ببطانية تغير لونها من الرمادي إلى الأسود بسبب الأوساخ المتراكمة، اختارت المساحة الضيقة على عتبة الأبواب بعد الدرجات كمكان لقضاء اللّيلة، وغير بعيد عنها، في الجوار يبحلق فيها بخبث كهل ورفيقه الهرم، من شرارة عينيهما وبريقهما المتقد، يظهر كأنّهما يخططان لشيء ما أو ناويان العزم على القيام بفعل ما.

أقلب رأسي يمنة ويسرة، أرى المدينة منهكة ومتهالكة، بعد يوم كامل من الشقاء المتوالد من صخب وزحمة وصراخ وجلبة الغادين والرائحين في شوارعها ودروبها الضيقة المتصاعدة والمنحدرة. الشقاء يتناسل في المدينة بمتوالية هندسية.

ألتفت في كل الاتجاهات علّني أقبض على قسماتها، أو أتبيَّن بعضًا من ملامحها وسط ظلام اللّيل الذي أدركني ولم أنتبه متى أسدل ستاره الأسود، النهار قصير جدًا في فصل الشتاء.

المدينة من أسفل تبدو ضائعة في الفراغ. عدا السواد الذي يلفها من كلّ الجهات، فللشتاء ليله الطويل. المدن لا تنام!! حتى وإن تظاهرت بالنوم، المدن تختار الليل كي تقاسمه أسرارها اللّذيذة وغواياتها وحتى أوجاعها وشقاءها. فلا أحد ينصت لها غير الليل.

أرفع رأسي إلى الأعلى علّني ألملم ملامحها وقسماتها، لا أرى غير النجوم تسبح في الفراغ، النجوم أيضًا كما المدن لا تنام. أحاول أن أبحث بين تلك النجوم عن النجمة التي ألهمت كاتب ياسين لكتابة روايته نجمة. أحدق ببصري في السماء علّني أعثر عليها وسط النجوم المضيئة كالأحلام.

تلك النجمة كما أخبرني عبد المومن موظف الاستقبال في الفندف، عادت مع كاتب ياسين على متن نفس الرحلة ونفس الطائرة القادمة من باريس إلى الجزائر، هو يرقد باطمئنان في تابوت خشبي، وهي جالسة في مقعد ما حزينة على وفاة أخيها مصطفى بعدما تعذر شفاؤه في فرنسا.

كانت تسترجع ضحكة أخيها وحديثه وذكرياتها معه، لم تكن تدرك أن ياسين الذي هام بحبها، معها على نفس الرحلة، أنّه بالقرب منها أكثر من أي وقت مضى. بكلّ الصفاء والراحة التي يسبغها الموت على النفس. نجمة كاتب ياسين الحقيقية اسمها زليخة كاتب أخت المسرحي المعروف مصطفى كاتب. صدف الأقدار أن يجمعك الموت مع من باعدت بينك وبينه الحياة. الأقدار حبلى بالمفاجآت غير المتوقعة. الأقدار ذاتها جمعت جثمان مصطفى وجثمان صديقه ياسين على متن نفس الرحلة.

لا شيء في ليل قسنطينة غير البرد الذي يقض العظام، وذكريات موجعة، وبقايا مبانيَ سلبها الزمن بهجتها، ومتشردين رمت بهم الأقدار دون رحمة في فوهة عالمها السفلي.

الكنزة ذات اللون الأزرق الليلي التي أرتدي، خفيفة بعض الشيء، أحسست الآن فقط، والليل في آخره، بأن البرد بدأ ينفذ من بين خيوطها ويتسرب إلى داخل ضلوعي.

مضت فترة من الزمن وأنا أتسكّع، من شارع إلى شارع، ومن نهج إلى نهج، ومن درب إلى آخر، أصعد، أنزل، قليلا ما كنت أمشي في طريق مستوية.

لماذا لم أحس بالبرد قبل هذه اللحظة؟

عاودتني كلّ هواجسي، أرى أني بت ضائعا، لم أكن أدرك أن يحملني الفضول والرغبة في التعرف على عائلتي، إلى اكتشاف كل هذا الكم من البؤس المتراكم.

لم أع أنّه عندما تطأ قدماي أرض هذا البلد الّذي لم يسبق وأن دخلته ولا مرة واحدة، أنّني بذلك سأفتح على نفسي كل أبواب التاريخ الموصدة بإحكام.

لم أكن أدرك أنّني بقدومي إلى أرض الآباء والأجداد سأنبش في الماضي على قسوته، وأفتح عينيّ على بشاعة الحاضر، وضبابية المستقبل الّذي لن يأتي.

يا ليتني ما جئت!!

يا ليتني ما عرفت!!

لم أعرف بلدًا مليئًا بالتناقضات كهذا البلد!

فقد جعلوه يعيش على المفارقات!

الماء أغلى من البترول، فثمن قارورة الماء أغلى من سعر لتر بنزين أو مازوت!!

المشروبات الغازية وغير الغازية سعرها أغلى من النبيذ!!

اسم الله وظفوه في المقدس والمدنس! عندما يفتح صاحب المخمرة محله يقول توكلت على الله! والداخلون عنده لاقتناء قارورات النبيذ يحيونه بتحية الإسلام ويردها عليهم، ويزيدهم أحيانا كلمة بارك الله فيكم.

أقحموا اسم الرب في رذائلهم وشهواتهم!

يغشون في التجارة وشفاههم تتمتم باسم الخالق!

وقبلها كانوا يقتُلون ويقتَلون باسم الرب المعبود!

الساسة يسرقون البلد بمباركة الزوايا ورجال الدين!

هل هؤلاء يمكن أن تعوّل عليهم في بناء وطن؟! أو في تشييد دولة لا تزول بزوال الرجال؟!

أجدني أدور في حلقة مفرغة، أنتهي في النقطة ذاتها التي بدأت منها، وأبدأ من جديد من نفس المكان، لأعود إليه مرة أخرى.

بعد كل هذا الوقت الذي أهدرته، بت أرى نفسي في فراغ سحيق. كما هذا البلد يسير نحو حتفه، وكما هم أبناؤه يبدؤون يومهم بدون قصد أو هدف، ويختمونه متهالكين من اللّف والدوران دون نتائج محققة، ثم يكررون الأمر ذاته في الغد وما يليه من أيّام.

هكذا هي حياتهم خبط عشواء دون مقصد أو غاية.

تربيت على أن لا أترك شيئا للصدفة تفعله نيابة عني، كلّ شيء بقدر وتخطيط.

اكتشفت أنّهم بالكلام يبنون قصورًا، وناطحات سحاب، وشركات عملاقة، واقتصادًا قويًا، ودولة عظيمة لا تزول بزوالهم.

ما يشيدونه بكلامهم أهون من بيت العنكبوت، لا يحتاج اختباره إلّا إلى نسمة ريح عابرة، أو موجة بحر في ذهابها وإيابها، حتى يتهدم ويكشف زيفه أمام الملأ. هم لا يعدون أن يكونوا مجرد ظواهر صوتية، لا تُغْني من فقر الجهل ولا تسمن من جوع التخلف.

الحضارة لا تبنى بالكسل والتراخي، ألم يروا أمامهم هؤلاء الصينيين الذين اجتاحوا مدن هذا البلد كالنّمل، ألم يعتبروا منهم، ومن تفانيهم في عملهم؟ ألم يتعلموا من جدهم ونشاطهم؟ ألم يأخذوا بتجاربهم ومنطقهم في العمل؟

«كل الأفواه تأكل. كل الأيادي تعمل».

أم أن المنطق مقلوب في هذا البلد؟ كل الأفواه تأكل. لا يستلزم كل الأيادي تعمل!!

ما أن مرَّ صيني إلا وتهكموا به، ألا يُجيدون غير الضحك على الناس، والتطاول على من هم أفضل منهم؟ أطفالهم يلتفون بالصينيين

موظفي شركات البناء والتعمير، للسخرية والتهكم، يصفونهم بأنّهم أكلي الكلاب والقطط، كلما رأوا صينيًا مارًا في شوارعهم تجمعوا خلفه، وهتفوا: «علي بابا.. علي بابا...»، وراحوا يضحكون وهم غير آبهين لأحد. الجميع يتأمل ويضحك، لا أحد يوقفهم، أو ينهرهم.

الخواء سيد الموقف في هذا البلد. بت أحس بالعدوى أصابتني، وأمراضهم تنتقل إليّ. بالكاد أقوى على الحركة وسط هذا الفراغ المهول الذي يحاصرني. بدأ اليأس يتسرب إلى شراييني، بتّ عاجزًا عن فعل أي شيء، بتّ عاجزًا حتى عن التفاؤل والأمل.

أمام هذا الفراغ الذي يحيط بي من كل الجهات، كل خطوة أخطوها تؤول للعدم، لا خارطة طريق ترشدني في خط سيري. بتُّ كبطل ميغيل سرفانتس، أراني أصارع طواحين الهواء كدون كيشوت دي لامنتشا.

لماذا أتذكر سرفانتس الآن؟

وأستحضر أسره في الجزائر؟

وأرى الدهشة مرسومة في ملامح وجهه لما دخل للجزائر!؟ رأى صورة أخرى غير تلك التي رسموها في ذهنه، رأى بياض العمران الذي يطل على الساحل من علٍ، والناس مشغولين بحرَفهم وصنائعهم، مدينة واسعة وساحرة. هكذا آسرته تلك المدينة، التي خلدها في روايته المشهورة دون كيشوت.

في الحقيقة كانت هذه الصور تتزاحم داخل رأسي في الماضي، كلّما وصلت إلى مدريد أو توليدو أو غيرهما من المدن الإسبانية. فكلّما أقف أمام نصب لدون كيشوت، أو لوحة فنية، أو نماذج مصغرة له ولسانشو مرافقه، مارست معي الذاكرة طقوسها. لكن اليوم، ها هو مشهد تلك الصور يمر أمامي لكن في قسنطينة. لا أعرف سببًا منطقيًا لذلك!

هل لأنّ المدينة احتضنت عائلات أندلسية فرت من التصفية العرقية التي قادتها محاكم التفتيش؟

أم لأن سرفانتس عشق جمال هذه الأرض؟
أم لأنّ الحلقة المفرغة التي أقف فيها ذكرتني بدون كيشوت؟
أم لكلّ هذه الأسباب مجتمعة؟

III

عنابة المحروسة

«إنّ مقابرها تمنح شهيّة للموت».

ألبير كامو

10

أخرجني السائق من غفوتي اللّذيذة حين أخبرني بأنّنا على أبواب مدينة عنابة. بالكاد استطعت فتح عيني، وبتكاسل نظرت من نافذة السيارة. الأضواء المتسربة من الخارج كأسهم تخترق بصري، أغمضت عيني وقمت بحركة تثاؤب تلقائية، حتى أعيد لجسدي حيويته وأستفيق أكثر.

في الخارج تطلّ كنيسة القديس أوغسطين من ربوتها العالية، بكل رهبة وفتنة، في إشارة إلى أن المدينة متسامحة مع الآخر، ومتصالحة مع ذاتها. في مدخل المدينة يربض مقام العالم والولي الصالح إبراهيم بن التومي، المكان الذي كان من أهم ثغور المقاومة والدفاع عن المدينة من هجمات الأعداء.

يقال إنّ الكثير من المسؤولين المحليين الذين تعاقبوا على إدارة شؤون المدينة، حاولوا تهديمه ونقله إلى موقع آخر. لكن ما أن تبدأ الجرافات والمجنزرات في عملها إلا وتتعطل، وهكذا دواليك. إلى أن أدرك هؤلاء المسؤولون وكلّ من جاء بعدهم بأنّ للمكان قدسية تحميه وتحول دون الضرر به، وأن هناك لعنة ستحل بكل من يسيء للمكان. أدين بكل هذه المعلومات الثمينة لصديقي حميدو الذي أثرى معارفي حول المدينة حاضرها وتاريخها.

نزلت في محطة السيارات ما بين الولايات، وجدتها تعج بأصحاب السيارات الواقفين بطريقة فوضوية وغير منظمة أمام سياراتهم،

لا يتوقفون عن الضجيج، والصراخ على بعضهم، والمناداة على المسافرين للركوب معهم.

في الخارج أوقفت سيارة أجرة كي تقلني إلى ساحة الكور أو ساحة الثورة كما أطلق عليها فيما بعد. فبعد الاستقلال كما علمت تمّ تغيير أسماء الكثير من الأحياء والشوارع والمعالم، لكن أغلب الناس فضلوا الاحتفاظ بالمسميات القديمة، ولم يستسيغوا تلك التسميات الجديدة.

أنظر يمينًا وشمالًا علّني أعثر على مقهى بن رابح، ولحظة أرشدني إليه أحد المارة، بدأت أقلّب بصري من جديد ذات اليمين وذات الشمال، وأرمي به إلى الطاولات المنصوبة تحت الأشجار المورقة، التي لا تغادرها الخضرة مع تعاقب فصول السنة، بحثًا عن صديقي حميدو بلهوشات.

من وسط الجلوس لمحت يدًا تلوّح لي، أظنّه حميدو، لأنّه لم يسبق لنا وأن التقينا مباشرة، كانت معرفتي به من خلال مواقع التواصل الاجتماعي، وكنت معجبا بما ينشره وبأنشطته ومواقفه وثقافته.

فكنا كثيرا ما نتحادث بالكتابة، وبالصوت والصورة في بعض الأحيان.

وقف وسلم عليّ محتضنًا، ثم أردف:

– جواد.. كيفك يا صديقي، مرحبا بك في عنابة. لا أصدق أننا معا اليوم، كأنّ الأمر أشبه بمعجزة.

– بخير، الله يسلمك عزيزي. وأنا كذلك، لا تتصور يا حميدو مدى سعادتي بلقائك.

– طمئني كيف كانت رحلتك؟

– ممتعة، فقط قليل من التعب بسبب أنّني تأخرت في النوم البارحة، واضطررت للنهوض باكرًا اليوم.

– سترتاح يا صديقي لا تقلق. لقد حجزت لك في فندق التورينغ، وهو قريب جدًا من هنا، بالكاد مسافة خمس دقائق فقط. كما أنّه نظيف ومريح جدًا، وموظفوه ظرفاء وطيبون. أنت بين أيدٍ أمينة، كن مطمئنا.

– ألم نتفق على أن لا تُتعب نفسك يا صديقي من أجلي، لا يرضيني أن تكلّف نفسك. هكذا تجعلني أندم على إخبارك بقدومي.

– إطلاقًا، هل تزورنا كلّ يوم حتى تتفوه بمثل هذا الكلام. والله فعلت الأمر عن طيب خاطر، بكلّ فرح وسرور. وحتى سعر الفندق في المتناول.

أخبرني حميدو أنّه كان في سنوات التسعينيات أستاذًا لمادة الأدب العربي في ثانوية مبارك الميلي، إلى أن قذف به في معتقلات رقان.

الرجل لم يكن متشددًا، ولم تكن له أي علاقة بالعنف الدموي، الذي أغرق البلاد والعباد في العشرية السوداء. بقدر ما كان مسالمًا وودودًا ودمث الأخلاق، ولم يؤذ حتى ذبابة، فما بالك أن يقتل، أو أن ينخرط في شبكات دعم ومساندة الجماعات الإسلامية المسلحة.

وكل من عرفه يشهد له بذلك، كما أكدّ لي.

أخبرني أنّه كان كغيره من الشباب الذين تأثروا بالصحوة الإسلامية، ما جعله يتعاطف مع الفيس، ويحضر مجموعة من ندواته السياسية ودوراته التربوية، ويتأثر بالاستماع لدروس ومحاضرات أهم المشايخ، حيث كان يتبادل أشرطة الكاسيت الخاصة بهم مع أصدقاء وإخوة كان يقف معهم بعد كل صلاة خارج المسجد للحديث والنقاش.

وذات خميس أُقتلع من مسجد الفرقان أثناء تأديته صلاةَ الفجر من طرف فرقة النينجا الخاصة التابعة للشرطة، وزجّ به في الأخير إلى معتقل رقان.

هناك لاقى أشد صنوف التعذيب والتنكيل على تهم لم يرتكبها، وكي تنتزع منه اعترافات استمر الأمر وقتا طويلا.

في النهاية يُبَرّأ ويطلق سراحه.

بعد خروجه من المعتقل، لم يتعرّف عليه أهله. لقد هزل وضاعت ملامحه، وبدا مترنحًا ومصدومًا.

لقد سُرّحَ من منصبه، وخابت كل محاولاته للرجوع.

ما جعله يكتري محلًا صغيرا في حيّ جبانة اليهود، بمال اقترضه من أخيه الأوسط رضوان، لأنّه كان خالي الوفاض حينها وأكمل كلّ مدخراته، ويفتتح مكتبة لبيع الكتب ومعالجة النصوص بالكومبيوتر.

وبحكم أنّه اشتغل بالتعليم، فقد كانت له شبكة علاقات جيّدة مع مجموعة من المقتصدين ومدراء المؤسسات التربوية. كان يساهم في تموين مكتبات بعض تلك المؤسسات بالكتب المدرسية، التي كان يسافر إلى عين مليلة وقسنطينة ليجلبها من دور نشر ومطابع هناك، بأسعار تفضيلية وتنافسية.

بقيّ سنوات على هذه الحال، وبعد أن اتسع نشاطه بعض الشيء وتحسن مردود المكتبة المالي، وظف شابة من حي سيدي سالم.

أصبح متحررًا بعض الشيء، لأنّ هناك من يعوّل عليه في العمل. لذلك فكر في إعادة التسجيل في الجامعة، ولأنّ تخصصه السابق لم يسعفه في الحصول على منصب. اختار تخصص القانون والحقوق.

لم يحس بالأربع سنوات وهي تمضي بسرعة البرق، كأنّه نام وأستيقظ.

بين المكتبة مصدر رزقه حيث كان يقضي جلّ وقته، وبين مدرجات الجامعة، التي كان يحضر بعض المحاضرات التي يراها مهمة، وأغلب التطبيقات بسبب إجبارية الحضور.

حتى نال شهادة الليسانس.

منحت له الشهادة فرصة أن يلحق نشاطًا جديدًا بمكتبته بطريقة غير رسمية، كتابة العرائض القانونية والشكاوى، ومختلف الوثائق

المرتبطة بالمحاكم والمنازعات، والتي تدخل في مهام المحامين، ما وفر له مصدرًا آخرَ من المردود.

إلى أن وقعت عينه على إعلان يتوسط صفحة في نسخة غير كاملة من جريدة النصر، موضوعة بشكل غير مرتب أمام الحاسوب في مكتب الشابة التي تعمل عنده. قرأ الخبر بنهم كبير، وطبعت ابتسامة عريضة على محياه، وكاد يطير من فرط الفرح.

فتح ماجستير تخصص شريعة وقانون في أحد أقسام الجامعة الإسلامية. ها هي الدنيا تبتسم في وجهه من جديد، بعدما أشاحت النظر عنه من زمن بعيد.

دخل المسابقة وكان من بين الناجحين. وفي الوقت ذاته سجل في دراسة التأهيل للمحاماة.

اضطر بعدها إلى غلق المكتبة خصوصا بعد أن تزوجت الشابة التي كان يُعَوّل عليها، وتركت العمل. كما أن وقته لم يعد يسمح بأي تشتت، فمكتب المحاماة الذي فتحه في شارع عَسْلَة حُسِينْ أخذ كل جهده واهتمامه.

بعد سنوات ناقش رسالة الماجستير، وبعد تجربة قصيرة في التدريس اضطر للاستقالة بسبب جشع وانتهازية أغلب زملائه أساتذة القانون، وبزنستهم في النقاط والعلامات الممنوحة للطلبة. لذلك اضطر بالاكتفاء بمردود مكتب المحاماة.

وبسبب الحنين إلى تخصصه الأول، وتكوينه الأدبي، كان يشارك من حين لآخر في النشاط الثقافي في المدينة على ضحالته وهُزاله.

ما جعله يحتك بالمحيط الثقافي أكثر، ويبني صداقات مع مجموعة مهمة من كتاب ومثقفي المدينة وخارجها، كما حدثني.

اعترف لي، أنّه فكّر في خوض غمار الكتابة، لكنه اكتشف بعد فترة أنّه بعيد جدًا، ويكفيه أن يكون متتبعًا ومهتمًا بالحياة الثقافية، وقارئًا نهمًا لأهم الإصدارات الأدبيّة. لأنّه اقتنع بأن الكتابة ليست

مظهرًا أو بذخًا كما كان يعتقد مخطئًا، بقدر ما هي فعل وجود وفلسفة حياة، لا يتاح لكل الناس.

لكنه لم يخف صدمته من بعض الكُتّاب، ومن المناخ الثقافي الموبوء، والمليء بالصراعات، والغيرة، والنميمة، والأحقاد.

وما كان يزعجه أكثر هو قدرتهم غير المتوقعة على التلوّن والنفاق.

فلم يستوعب كيف لكاتب أو مثقف يجلس معه في مقهى، يجرح ويقدح في مثقف آخر وينعته بأشد النعوت قذارة.

وبعد أيام يلتقط معه صورًا على هامش نشاط ثقافي ما، تُظهر ودًّا كبيرًا ومحبة بالغة، ثم لا يتورع أن ينعته بأبهى النعوت ويصفه بأجمل عبارات المبالغة والإكبار.

ولأنّه يعتقد أن سن الزواج فاته، وأن الكثير من محاولاته لم يكتب لها النجاح، تشكلت لديه عقدة، بمثابة حجر عثرة أعاقه عن التقدم من جديد لخطبة أي فتاة.

فلم يعد يفكر في الموضوع البتة، خصوصًا وأن مكتب المحاماة ومسؤولياته والتزاماته تجاه عائلته تلتهم كل وقته، والتي تضاعفت بعد سجن أخيه الأصغر مروان بلهوشات.

مروان الذي كان يحلم في الإقلاع ومحاكاة الأثرياء. فقد انتقل من دراسة الطب إلى دراسة البيولوجية، حيث اختلط بطلبة الأحياء الراقية، فكان حينها يتسكع مع شلّة شباب مدللين يقيم أغلبهم في أحياء البوسيجور، وواد القبة، وقاسيو وسيدي عيسى.

يحاكيهم في المظهر والسلوكيات، حتى أنّه كان لا يرضى إلا باقتناء الماركات العالمية في اللباس والعطور، وكان من فترة لأخرى عندما ينقص مصروف جيبه يدخل في أزمة نفسية عميقة.

أراد في بداية مشواره أن يبدأ كبيرًا، اقترض من البنك، وأسس مؤسسة إنتاج وتعليب مجموعة من الأدوية البسيطة التركيب.

تحصّل على الدعم المالي في إطار مشاريع لونساج لدعم الشباب، كغيره من مئات الآلاف من الشبان الذين استفادوا من ريع البترول. بغض النظر عن مدى فعالية تلك المشاريع في السوق وجدواها الاقتصادية، ما يهم هو شراء الصمت الاجتماعي، بتوزيع جزء من الريع على الشعب، خصوصا وأن الوضع الاجتماعي على كف عفريت، مهدد بالانفجار في أي لحظة.

البداية كانت مع المورِّد الذي استورد له بعض معدات وأدوات التصنيع، فقد دفع له البنك ثمن آلات وتجهيزات ذات علامات وجودة موثوقة، اختارها هو بنفسه في الملف التقني للمشروع الذي قدمه. في حين المورد اقتنى له علامات أقل جودة، وبنفس الثمن.

لم ينفعه تذمّره وتهديده بكشف المورد، لأنّ دائرة المتواطئين كبيرة.

لذلك قرر البدء في النشاط. تركيب دواء تنظيف الجروح، وتعبئة ثلاث أدوية في قارورات وتغليفها.

بعد شهر من العمل، اكتشف أنّ هناك مشكلة في التوزيع، وأنّ هناك شركات محلية وأجنبية لا مجال لمنافستها. لذلك لم يلبث وأن توقف عن الإنتاج عساه يجد مخرجًا لهذا المأزق الذي وجد نفسه فيه.

في عزّ أزمته تلك، عَرَّفَهُ صديقه نجيب فكنوس على مستورد معروف، وأخبره أنّه سينتشله من الحفرة التي أوقع نفسه فيها.

بعد لقاءين مع علاوة طليبة في فيلا في حي فالماسكور، أقنعه باكتراء سجله التجاري، لاستغلاله في عملية تصدير بعض الحاويات. وهذا للاستفادة من المزايا الممنوحة له كالإعفاء من مجموعة مهمة من الضرائب والرسوم الجمركية.

ما كان على مروان إلّا الرضوخ، خصوصًا وأنّه مازال عالقًا مع القرض، لأنّه لم يكمل دفع كل أقساط البنك.

بعد فترة اقتيد إلى مركز الشرطة الرئيسي المحاذي لملعب شابو، بتهمة تهريب العملة الصعبة والتصريح الخادع. إذ اتضح بعد التفتيش الجمركي أنّ الحاويات التي وصلت من الصين إلى ميناء عنابة،كانت مليئة بالخردة والحجارة.

لا يتورع الكثير من المستوردين على القيام بأيِّ شيء، والابتكار في أساليب ومناهج الاحتيال والنهب.

فالمستورد علاوة طليبة، الذي لا يستطيع حك بطنه المكورة المتدلية التي تصل إلى ركبته. يظهر في البذلات الرسمية كمسخ مقزز.

قدم إلى عنابة هاربا من إحدى مدن الغرب الجزائري، حيث اشتهر بتجارة المخدرات التي كانت تصله من المغرب بواسطة شبكات سرية متحالفة مع فلول الجماعات المسلحة في الجنوب، كجماعة بلعور التي كانت توفر لها الحماية وتؤمن لها الطريق مقابل رسوم متفق عليها.

في عنابة حاول التمويه عن أنشطته الحقيقية التي يعرفها القاصي والداني، ولم تعد سرًا على أحدٍ. فالألسن تلوكها بمرارة وبحالة من ضعف الحيلة في المقاهي، وفي الأماكن العامة.

لغرض تبييض أمواله اشترى أربع فيلات في أهم أحياء المدينة، وأسس شركة تصدير واستيراد.

قام بكل شيء، حتى أنّه في أنشطته المشبوهة كان يستغل سجلات تجارية بأسماء مجانين وأموات.

لا حدود أمام شراهته ونهبه للمال العام.

سجن أكثر من مرة في قضايا أخلاقية متعددة، لا علاقة لها بنشاطه المشبوه، كضبطه في شقة دعارة في عمارة في حي سكني بالبوني، وتورطه في استغلال قاصر فرت من بيت والديها.

لكنّه سرعان ما يخرج كالشعرة من العجين، بسبب المحامين الذين يوكلهم والقضاة الفاسدين الذين يغدق عليهم.

وقد رفض حميدو الدفاع عنه كطرف مدني في أكثر من قضية. من باب المبدأ فقط.

كان حميدو يرتشف قهوته بمتعة منقطعة النظير، يتنفس ملء صدره، ويستلذ طعم البن في فمه، وذهنه يحلِّق في انتشاء كبير، وهو غارق في شجون الحديث.

قطعته بابتسامة عريضة:

– لاحظت أن هناك سرًا في تسمية أخويك، لم أجده في اسمك.

ضحك حميدو، حتى كاد يسقط فنجان القهوة على قميصه، لو أنّه تفادى الأمر بحركة تلقائية من يديه. ثم أردف قائلا:

– حكيت لك عن رضوان ومروان، ولم يأخذنا الحديث إلى ذكر صفوان.

– لا، غير معقول. رضوان ومروان وصفوان، تناغم كبير في وضع الأسماء بعيد عن كل نشاز كمعزوفة موسيقية متناسقة.

ضحك حميدو حتى تحرك كرسيه. عدَّلَ من جلسته، أصبح يجلس في وضعية تكاتف الأرجل، والساقُ ملتحمة بالساقِ، ثم عقد ذراعيه أمامه على الطاولة وبنظرات كلها ثقة، قال بصوت فيه نغمة من التأثر:

– أبي سي الشريف (رحمة الله عليه)، كان شاعرًا يكتب القصيد، بالإضافة إلى أنّه كان ملحنًا بارعًا في طبع غناء المالوف ذي الأصول الأندلسية، وهذا باعتراف أرباب وشيوخ هذا الفن في عنابة وقسنطينة. وكانت مكتبته المصنوعة من خشب الجوز تمتلئ رفوفها بمخطوطات وكتب الفقه والفلك والأدب والموسيقى.

– غمزت بعيني اليسرى، وأشرت بأصبعي إلى قمة رأسي مازحًا، ثم أردفت:

– ولماذا سي صفوان بالذات لم تحدثني عنه من قبل؟

صمت حميدو لحظة، وشرد ذهنه بعيدا، وعمت فترة سكون كأنها دهر.

فهمت من خلال عينيه ونبرة صوته أنّ هناك وجعًا ما.

أردت أن أغيِّر الموضوع، لكن حميدو تنهّد كأنّه يحمل أثقالا تنوء بحملها الجبال، ثم أردف قائلا:

– إيه أخي صفوان الأكبر، كان خسارتنا المضاعفة، فقد رحل أبي الذي كانت فاجعته في ابنه البكر والقريب إلى قلبه عظيمة ومصابه جلل.

فلم يتحمل قلبه الضعيف وقع المصيبة.

فأبي كان يفضل أخي صفوان علينا ولا يخفي تحيزه، وكان الأمر يزعجنا كثيرا ويؤجج فينا مشاعر الغيرة مذ كنا اطفالًا.

صفوان جاء بعد طول انتظار، وكانت فرحة أبي عارمة بقدومه كالغيث بعد سنوات القحط والجفاف.

كان صفوان ضابطًا في الجمارك في ميناء عنابة، ونظرًا لمضايقته بعضَ رؤسائه في العمل أصبح مصدرا غير مرغوب فيه، فتم إبعاده من خلال نقله إلى ميناء سكيكدة الأقل حركية من ميناء عنابة.

وبعد ثلاث سنوات حُوّل إلى المديرية الجهوية للجمارك في الجزائر العاصمة، القريبة من محطة تافورة للنقل. حيث تمت ترقيته وأصبح مسؤولًا على أكثر من مائة مرؤوس في الميناء.

من شدّة ضغط العمل والإغراءات المتكررة، مرض بالسكري وبالصداع النصفي.

ولما قرر رفض الصمت عن قضية فساد كبيرة تورط فيها مسؤولون نافذون في الحكم وجنرال متقاعد. تمت معاقبته من خلال تحويله إلى الحدود الجزائرية التونسية في مدينة تبسة النائية.

بدأت عصابات تهريب الماشية والبنزين، تضيق ذرعًا بتصرفات وتعليمات أخي المستجدة عليها.

تم تضييق الخناق على أنشطتها ومحاصرتها. فلم تجد أيّ منفذ أو مخرج ممكن أمام تعنته، وتصلبه، وغلقه كلَ أبواب الإغراءات المالية والمادية التي فتحت أمامه على مصاريعها.

بعد عشرة أشهر، وبالضبط في العاشرة ليلًا وربع في يوم قائظ ورطب، أتذكره بكل تفاصيله وحيثياته كما الآن. كنا مجتمعين في غرفة الاستقبال، نشاهد برنامج الجليس.

فجأة رنّ الهاتف، فوقفت من مكاني منتفضا، ظنًّا أنّ هناك من يحتاج التأديب. علّ موظفا يناوب ليلًا، ويريد أن يقتل وقته الرتيب الذي يمر ببطء، في الاتصالات العشوائية بأرقام يشكلها تلقائيا.

لقد تعودنا على الأمر.

لما رفعت السماعة وهممت في رفع عقيرتي وإسماعه ما لا يرضيه. إذ بصوت في الطرف الأخر يرد بكل لطف وبلغة رسمية.

احمرت وجنتاي، وحمدت الله أنني لم أنفجر بعد.

ما لبث أن أخبرني بمهاجمة المركز الجمركي الذي يعمل به صفوان بالأسلحة، وحرق سيارات الجمارك الرباعية الدفع. وأنّ أخي قد كان ضمن قائمة القتلى أو شهداء الواجب كما وصف المتكلم في الهاتف.

تسمّرت في مكاني، وتجمّد الدم في عروقي، ولم أعرف ما افعل لحظتها.

في يوم الجنازة أخبرني أحد زملاء أخي الناجين أنّ رجال القاسطو معيفة هم من كان وراء عملية الهجوم على المركز. والقاسطو كما حدثني هو مهرب كبير، ومجرم خطير يقيم في قصر بناه له الصينيون في بئر العاتر، فبالإضافة إلى تحوّله إلى نشاط استيراد البضائع المقلدة من الصين، حافظ على نشاطه القديم في تهريب الخراف والمازوت إلى الحدود التونسية. ومقايضة ما يهرِّبه بالشيفون (الملابس والأحذية المستعملة) القادم من أوروبا، وحلويّات الشامية التونسية، والعجائن والتوابل، ومختلف المنتجات الغذائية الأخرى.

ومن نشاط التهريب كَوَّنَ ثروة كبيرة، جعلته فوق القانون.

كنت أصيخ السمع باهتمام كبير، ذقني متكئ على كف يدي الذي ثبت رأسي كي لا يطير التركيز منه، كما هي عادتي دومًا عندما أكون مهتمًا بموضوع ما. إلى أن توقف حميدو عن الكلام، وسادت مجددًا فترة صمت، لم أكن أجد ما أقوله سوى التربيت على كتف حميدو، وإبداء تضامني معه بملامح وجهي وحركات جسدي كأقصى ما استطعت تقديمه له في هذه اللّحظة المؤلمة. التي لا أتمنى لأحد أن يكون في مكانينا الآن.

شددت على يديه بكلتا يدي، مبديا تعاطفي ومساندتي له، ثم رفعت نظري صوبه قائلًا:

– لا تأبه يا صديقي، الرجال يبتلون على قدر عظمتهم. ما مضى لن يعود، ومشاعر الألم والحسرة لن يغيرا في الأمر شيئًا. امض في طريقك قُدُمًا بخطوات ثابتة، وبهامة مرفوعة، تكن قد ضيعت فرصة كبيرة على هذا الماضي البائس في أن يهزمك.

حرك حميدو رأسه حركات متكررة ببطء، محاولًا مجاراتي فيما ذهبت إليه. ما جعلني انتبه لعينيه الملتمعتين بسيل من الدموع المحتبسة في محجريهما. إلى أن انفلتت دمعة مالحة على خده الأيسر، بحركة سريعة من يديه مسحها. الأمر الذي نما فضول بعض من يجلسون بالقرب من طاولتنا، وجعلهم يطلقون طرف بصرهم خلسة نحونا، علّهم يطفئون جمرة فضولهم الحارق.

11

بالكاد أقوى على رفع جفنيّ، اللذين يخذلاني من حين لآخر. أبذل قصارى جهدي كي لا أغفو، لكن عبثًا تفوتني الكثير من كلمات حميدو. أصحو فجأة على صراخ منبعث من التلفاز المعلق في قاعة الاستقبال، أحاول أن أتظاهر بالاهتمام والإصغاء، لكن سرعان ما أفشل في مقاومة النعاس مجددا.

هكذا كانت تتلاعب بي أمواج اليقظة والغفلة، وكنت أسيرًا مستسلمًا لمدّها وجزرها.

رأف حميدو لحالي، وحاول أن يطلق سراحي، ربت على كتفي قائلا:

– أنت بحاجة إلى الراحة. اصعد إلى غرفتك وغدًا يومٌ جديد.

نهض من الأريكة الوثيرة، مدّ لي يده مصافحًا. وعند وصوله إلى مخرج الفندق التفتَ صوبي وكأنّه تذكر للتو شيئا مهمًا، وأردف:

– غدا بإذن الله أتصل بك صباحا.

ثم اندفع صوب الباب، ومع صرير الباب وهو يغلقه خلفه، يبدو أني سمعت دمدمته: تصبح على خير تنفذ إلى أذني قبل أن يرتطم الباب بإطاره.

فتحت عينيّ على خيوط الشمس المتسربة من زجاج النافذة المكشوف. بالأمس حين وضعت حقيبتي في الغرفة أردت أن ألقي نظرة عامة، تراني لم أنتبه لرد الجزء الأيسر من الستار إلى مكانه.

كلّ ما أتذكره من ليلة البارحة أني سقطت كجثة هامدة، حتى أن سلطان النوم لم يسعفني كي أبدّل ملابسي.

لم أحتمل حالتي تلك التي استيقظت عليها، نزعت ملابسي واتجهت مهرولًا صوب الحمام، هربًا من الإحساس بالبرد الذي بدأ يتسرب إلى أطرافي العارية.

الماء الدافئ المتدفق من أعلى، ينعش جسدي ويمنحني شعورا لذيذًا، يغريني بالبقاء أكثر تحت شلال الماء العذب. والبخار المتصاعد كضباب يحجب عني الرؤية، يجعلني كالمنتشي أنظر مندهشا في الفراغ.

على طاولة الفطور التهمت هلالية وقطعة خبز بالزبدة والمربى، مع كأس من الحليب الممزوج ببعض القهوة، وكأس آخر من عصير البرتقال. بقي فنجان القهوة على حاله لأنّني لم أستسغ طعمها وطريقة إعدادها.

تركت المفتاح عند موظف الاستقبال ودفقت خارجا.

المدينة تتثاءب في كسل، وبعض النسمات تداعب وجوه المارة، يتلاشى أثرها تحت أشعة الشمس التي تعلن عن وجودها ببعض من الغرور. أحاد وزرافات يتدفق الموظفون والإداريون على مؤسساتهم ومكاتب عملهم، كأنّهم انتزعوا غصبا من تحت أغطيتهم الدافئة.

فكرت في أن ألقي نظرة على المكان مادام حميدو لم يتصل بعد؛ كل البنايات المحيطة معمارها كولونيالي، دار البلدية التي تظهر واجهتها من بين أغصان الأشجار وجريد نخلتين شامختين في ساحة الكور. والمسرح الجهوي عزالدين مجوبي تعلوه الرسومات والنقوش بتصميمه المتقن، يظهر جليا أنه يعود للحقبة الاستعمارية.

ابتعت من أول كشك صادفني في الساحة جريدتي الوطن وليبرتي. أخذت أقلب الصفحات الواحدة تلو الأخرى، وأرتشف من فنجان قهوتي على وقع حفيف الأوراق الممزوج بأصوات العصافير

المتزاوجة من فوقي. أشعر بغبطة كبيرة تهز كياني كله من قمة رأسي إلى أخمص قدمي.

ما أجمل هذا الصباح. خصوصًا حينما نختلي بأنفسنا في زاوية ما دون موعد مسبق، ونتأمل فتنة وبهاء هذه المدينة الذي لم تفلح كل تجاعيد الزمن التي تعلو واجهات البنايات في طمسه، ولا كل تشوهات وانحرافات البشر في إطفاء جذوة الحنين والشوق.لم ينجح منسوب البؤس المتراكم في الشوارع والأحياء في محو ذلك الأثر العميق على النفس العطشى لشيء اسمه وطن.

قلما أهيم بمدينة هكذا. في العادة أنا جد متطلب.

انتبهت لرعشة الهاتف في جيبي. ظهر اسم حميدو على شاشته:

– أهلا جواد.. صباح الخير.. معذرة يا صديقي حدث طارئ، لذلك لم أتصل بك.. أنا في مستشفى ابن سينا.. ووضع الحاجة أمي مستقر- الحمد لله- وحالتها الآن أحسن بكثير. بعد أقل من ساعة سأكون عندك.

– لا تقلق بشأني، اهتم بوالدتك. وأتمنى أن تتعافى خالتي تراكي في أجل قريب. لا تنس أن تبلغ لها سلامي وتمنياتي. كان الله في عونك حميدو.

– إطلاقا يا صديقي، على الرحب والسعة. قريبا سيصل مروان. وسأكون عندك. لا تهتم.

دلفت داخل قاعة واسعة في المدخل الجانبي للمسرح، انتبهت للافتة معلقة كُتب عليها معرض الكتاب. في الحقيقة لم أجد أين أذهب، لذلك أردت أن أستغل وقت انتظار قدوم صديقي.

لاحظت رجلا بشارب معقوف إلى الأعلى وبعض الشعر أسفل الذقن، يجلس أمام طاولة فوقها مجموعة كتب، كأنّه دوق يجلس في عرشه. أثار انتباهي مظهره ورهبته، اقتربت منه دون أن أمنح نفسي لحظة تفكير أو تخطيط مسبق، وبكل تلقائية بادرته بالكلام:

– صباح النور سيدي، أردت أن أسأل: إن كانت كلّ هذه الكتب التي أمامك من تأليفك؟

ابتسم بعمق ثم رفع رأسه، ووجه نظره صوبي، وبصوت هادئ صقلته تجارب حياته، وبياض شعرات رأسه، ومكانته الاجتماعية الظاهرة على ملامحه، كما يبدو:

– هذا كلّ ما خرجت به من هذه الحياة. هي بنات أفكاري وفلذات كبدي.

ثم تأملني مليًا. بينما جنحت للصمت برهة زمن، خانني لساني وأضحيت أبكم لا تطاوعني حروف اللّغة. بقي رنين كلماته وصدى صوته المؤثر يحفران بعمق داخلي.

اقترب منا شاب يلبس سروال جينز وقميصًا مكويا باهتمام، شعره خفيف تحركه أي هبة ريح كيفما اتفق. يظهر أنّه المسؤول عن المكان.

– لقد نشرنا له مؤخرا أعماله الكاملة، التي لاقت استحسانًا كبيرًا من أطراف عدة. لكن هذا الاستحسان لم يترجم في رفع المقروئية وفي عدد النسخ المباعة للجمهور .للأسف نحن أمة لا تقرأ. أجتهد في طبع ونشر الكتب والمخطوطات المحققة التي تتناول تاريخ المدينة. أضطر للاستدانة والسفر إلى لبنان بحثًا عن الجودة في طبع هذه الدرر المعرفية. لكن كثيرًا ما أصطدم أثناء التوزيع بجهل المكتبيين، وزهدهم في اقتناء منشوراتي. تعرف لولا رعاية البلدية لمجموعة من الكتب والمخطوطات التي تناولت بونة، ولو لا توزيعي الحصري لمنشورات دار بريطانية معروفة. لأعلنت عن إفلاسي.

الرّجل الذي أمامك هو من أهم شعراء المدينة، من لا يعرف كَمَال دَرْدُورْ؟ لكنّه تعرض للإهمال والتهميش، ما أضطره لمقاطعة النشاطات والفعاليات الثقافية المحلية التي تنظمها الجهات الرسمية في المدينة. من حين لآخر يشارك في ندوات ولقاءات ثقافية وفكرية

في تونس، بحكم التقدير والاعتراف الذي لاقاه هناك. كما أن جدته تونسية، وأن تونس لا تبعد عن عنابة كثيرا، فالمسافة بينهما لا تتجاوز 300 كيلومتر، وهي أقل من نصف المسافة إلى العاصمة الجزائر.

انتفض هاتفي النقال مجددًا، أخرجته من جيب سروالي:

– ألو، أخبروني في الفندق أنك خرجت. أينك يا رجل؟

– لحظة حميدو، أدفع فقط ثمن الكتب التي اقتنيتها من معرض الكتاب، وأخرج لك. نلتقي أمام المسرح.

خرجت متأبطًا سلسلة كتب، وقع نظري مباشرة على حميدو ينتظر أمام محل بيع الورود المحاذي للمسرح. شاردًا ومثقلًا ومهمومًا، يظهر عليه الإعياء والإرهاق، ومسحة من الحزن طبعت ملامح وجهه.

حالما انتبه لوجودي، حاولت أن أتحرر من الموقف المحرج الذي أوجدتني فيه:

– أظن أن ليلتك كانت شاقة وطويلة، وأظنني أثقلت عليك، فمن المفروض أن لا تغادر المستشفى في هذا الظرف العصيب، أو أن تأخذ على الأقل قسطًا من الراحة، تعيد بها الحيوية لجسدك المتعب. لا أريد أن أحملك ما لا تطيق؟

قطب حاجبيه واعترته سحابة ضيق عكرت مزاجه. يكفيه ما حل به، كأنّه لم يكن ينتظر ردة فعلي تلك. ثم دمدم:

– ماهذا الكلام، رجاء لا تكرره، وإلا سأغضب منك. لم أفعل لك أيّ شيء يستحق. فأنا لم أساعدك بعد كي تعثر على عنوان أقربائك هنا. نحن أصدقاء يارجل ولاحسابات بيننا أو بروتوكولات.

كلام حميدو لم يغير في ما شعرت به قيد أنملة، بل أضحيت محرجا للغاية أكثر من ذي قبل. أعتقد أن حميدو حاول مساعدتي على تجاوز هذا الموقف، بتغيير مجرى الحديث:

– أراك تحمل حزمة مؤلفات شاعر المدينة. قرأت له، يكتب بفرنسية رائعة، يتحكم في الأداة والرؤية. وهذا الرجل لم يُنْصَفْ

بعد، وسيأتي زمن يدركون فيه فداحة أخطائهم، حينها سيكون الوقت قد تأخر، ولا مجال أمامهم لاستدراك أي شيء.

ثم أضاف:

– ذكرني بلقب أقربائك هنا؟

– عمتي الطاوس لقبها زهري.

– رجاء يا جواد لا تمزح. من يعرف ألقاب النساء في هذا البلد. العائلات تعرف بألقاب الرجال. نحن في مجتمع بطريكي.

– لقب زوجها عمي الهادي (رحمه الله) يوسف خوجة.

قطعنا الطريق إلى الكور، مشينا قليلًا ثم قطعنا الطريق مجددًا إلى الرصيف المقابل، الذي تتراص فيه محلات بيع ماركات الملابس المستوردة بجنب بعضها. انعطفنا يمينًا، ثم دخلنا زقاقًا جانبيا يقع بعد تجاوز مكتب الحالة المدنية وقبل الوصول إلى مقهى الحرّية الذي يقصده الغرباء عن المدينة وشباب الخدمة العسكرية، كما حدثني حميدو. مررنا بمقهى جرجرة ونزل الأندلس، ثم دنونا من الأمن الحضري المقابل للثكنة العسكرية، بعدها انعطفنا إلى زقاق ضيق جدا، بدأت تظهر البنايات المتهالكة.

أخبرني حميدو أننا في المدينة القديمة لابلاص دارم. لما وقفنا أمام بيت تهدم جزء كبير منه، ظهرت لنا غرفه بجدرانها المتهالكة وبعض الركام المختلط بالأغراض المنزلية والأثاث. تنهّد حميدو بعمق، وأخرج آهة كأنه سحبها من قاع بئر عميقة، ثم أردف متأثرًا بالمنظر الدراماتيكي الذي أمامه:

– المدينة القديمة، بمعمارها العثماني والأندلسي والكولونيالي والعربي العريق، تتآكل يوميًا أمام أنظار المسؤولين المحلين، المرتشين والفاشلين. ولا أحد منهم وخزه ضميره أو حرك ساكنا أمام ضياع تراث إنساني عظيم. ففي كل لحظة تتساقط بناية على رؤوس ساكنيها، أو على المارين في الطرقات المحاذية لها. فمن يبكي خسارة مضاعفة، خسارة الأرواح وخسارة التاريخ.

لم أجد ما أقوله سوى وضع السبابة والإبهام على ذقني وتحريك رأسي، مستغربًا مما رأيت ومبديًا مساندتي لموقف حميدو.

لم يسكت حميدو، واصل حديثه ساخطًا على ما آلت إليه الأمور:

– المدينة تمتلئ بالغرباء، والنازحين، والفارين، واللصوص، والفاشلين، والمخنثين، والمجهولي النسب، والمعتوهين، والدجالين، والمتسولين، والعسس، وحراس المعبد، الذين أتوا على الأخضر واليابس. والذين انتهكوا عذرية جمالها وتاريخها الضارب في الأعماق. لقد حزم أهلها حقائبهم، وقرروا الرحيل، والمغادرة من دون رجعة، ومن دون ندم حتى. هربًا من البق الذي امتص كلّ الدماء الحية في بونة، وحَوَّلها إلى هيكل متداع أيل للسقوط، وإلى خراب وشيك.

تنفس بعمق، ثم أشار بيده إلى باب زجاجي عليه ستارة داخلية، وقال:

– هذا مطعم صديقي المولدي، أتناول فيه غدائي من حين لآخر. وهو جزء من منزله العائلي حوَّله إلى مطعم يرتزق منه هو وأمه وزوجته وأخوه. منذ فترة كان مغلقًا بسبب قرار لجنة مراقبة غذائية، لم يعطهم قهوة (رشوة) نزولًا عند رغبتهم. بعد تدخل ممثل مسرحي معروف في المدينة من رواد المطعم، تم إعادة فتحه قبل أسبوعين فقط بقرار آخر. على فكرة المطعم يقدم وجبات تقليدية رائعة كالشخشوخة، والبوراك العنابي، والمحجوبة، والحمص بزيت الزيتون، وغيرها من الوجبات، أم المولدي وزوجته يتوليان الطبخ وهو وأخيه يقومان بخدمة الزبائن. المهم أن المولدي كأنّه موظف في الحالة المدنية، يعرف أغلب المقيمين في المدينة القديمة، حتى أولئك الذين رحلوا منها.

فتح حميدو الباب، الطاولات على قلتها موضوعة بعناية، والمكان مرتب بدقة ونظيف ورائحته عطرة. استقبلنا رجل بشوش ربط فوق ملابسه مئزرا احمرا باهت اللون مخصصا للطبخ، عليه خطوط وفواكه قاتمة الألوان. بعد أن حياه حميدو، بادره متسائلا:

– هل سبق وأن سمعت بعائلة يوسف خوجة؟

– كيف لا أعرفها؟ عائلة عمي الهادي، لقد تربيت أنا وابنه زاكي،كنا ندخل بيوت بعضنا البعض دون أدنى حرج. نتبادل الطعام والكعك، وتتزاور عائلتينا. كانت تربطنا بها روابط متينة.

– خطوة ممتازة، رجاء اخبرني أين أجد بيتهم، حسب كلامك أظنه قريب جدًا من هنا.

– منذ وفاة عمي الهادي، لم يتفق ورثته، فمنهم من قرر بيع المنزل ومنهم من رفض الأمر. وبعد نزاعات وخصومات امتدت إلى الشارع. خضع الجميع للأمر الواقع، وتم بيع المنزل وتقاسم أبناؤه ثمنه. سمعت أن خالتي الطاوس تقيم في شقة ضيّقة بغرفتين أشبه بستوديو في واد فرشة هي وأبناؤها الذين كانوا ضد قرار البيع.

– ربي يخليك أصحيبي ميلود. تعيش على المعلومات القيمة التي أفدتنا بها.

كانت سيارة حميدو الياريس على طول الطريق إلى واد فرشة في حركة بهلوانية، هربًا من الحفر والمطبات، ومن أكوام التراب التي تركتها الورشات المفتوحة في كل مكان، ورشات نهب المال العام كما يصفها حميدو. وصلنا إلى محور دوران يعج بالسيارات والمركبات والحافلات المتزاحمة، كأنّنا في يوم الحشر. خرجنا منه بشق الأنفس. عندها اخبرني حميدو أنّنا في مدخل واد فرشة. تنفست الصعداء، بعد أن أشعرتني حالة الشوارع والأحياء والساحات والطرق التي مررنا بها أننا ذاهبون إلى الجحيم.

توجه حميدو إلى بعض المراهقين الذي يسندون ظهورهم إلى حائط كأنّهم يخشون عليه من أن يَنْقَضَّ. وبعد برهة أخذني إلى بيت قريب من مسجد الحي، ثم استأذنني للمغادرة، فقد اخبره مروان أن البروفيسور ساري أعلمهم بأنّ خالتي تراكي بإمكانها أن تغادر المستشفى مساء، لأن وضعها جد مستقر. فحميدو لم يتوقف عن الاتصال بمروان لحظة بلحظة من أجل الاطمئنان والسؤال عن أمه.

طرقت طويلا على الباب الحديدي بيدي، إلى درجة أن ألمتني أصابعي. وبعد أن يئست وفكرت في مغادرة المكان، سمعت صوت عجوز يطلع من خلف الباب تسأل عن الطارق. أخبرتها أني جواد زهري ابن أخيها عبد المجيد. ردت مستغربة:

– من تدعي أنه أباك مات قبل خمسين سنة على يد الخاوة؛ فقد كان من المفقودين في بدايات عام 1962 إلى أن وصلنا خبر أنّه أعدم في الجبل بتهمة التعاون مع سلطة الاستعمار. حاولت أن أوضح لها الأمر لكن لم افلح في إقناعها ومضت كل محاولاتي دون جدوى. فقد بقيت عمتي مصممة على عدم فتح الباب لأنّها لم تصدق ما سمعته. حتى أجبتها عن بعض التفاصيل الخاصة التي سألتني عنها. عندها فتحت الباب وصرخت صرخة مدوية ثم احتضني باكية. كانت لحظة صعبة جدا وفارقة، ومشاعر من الصعب وصفها.

12

بدا عليّ بعض التململ واعتراني ما يشبه الإرهاق. فمذ أن جلست على مطرح الصوف وأنا أجيب على سيل جارفٍ من الأسئلة التي أمطرتني بها عمتي الطاوس. مضت ساعات لم نتوقف فيها عن الكلام المباح وغير المباح، فَتحتْ كل الأبواب المغلقة، نبشتْ في الماضي والحاضر، في ما يحق لها وما لا يحق لها.

كنتُ كالضحية بين يدي جلاده، لا مفر من الخضوع لفضول عجوز بلغت من الكِبَرِ عُتِيًّا.

بعد أن أدركتُ أنّها أشبعت نهمها إلى حد كبير وأرضت بعضًا من فضولها غير المحدود، سألتها عن سليم زهري. رفعت حاجبيها ومطت شفتيها وأبدت عدم معرفتها بهذا الشخص. لكنها تذكرت أن ابنها زاكي يوسف خوجة حدثها قبل سنوات عن أن هناك عائلة تقيم ببلدية شطايبي تحمل لقب زهري.

– متى يعود زاكي إلى البيت كي يرافقني إلى عين المكان.

ضاق صدرها واستحال لون وجهها إلى غيمة سوداء، وكادت تختنق بشهقة بكاء حادة كأنّها نوبة ربو مفاجئة. وبصوت مخنوق ومتقطع قالت:

– زاكي لن يعود أبدا إلى هذا البيت. لقد كوت الحياة كبدي. أصعب ابتلاء على الأم أن تفقد فلذة كبدها، أي طعم للحياة بعده.

حاولت أن أهدئ من روعها، لكن أنى لي ذلك.

روايدًا روايدًا بدأت تتماسك وتستعيد بعضًا من ملامحها. وكلّما تكلمت أحسست أنّها تتخفف من ثقل الوجع. لذلك لم أقاطعها، تركتها للبوح.

– استحالت حياة ابني زاكي إلى جحيم بعدما رفض والد تسعديت تزويجها منه. رفض الأمر جملة وتفصيلا، وأغلق كل الأبواب في سبيل إقناعه بالعدول عن رأيه، لأنه أرجع كل من توسط خائبًا، معلنًا أن لا مجال للحديث مجددًا أمامه في هذا الموضوع، لأنّه فصل فيه، وانتهى الأمر.

الغريب في الأمر أنّه اتخذ قراره وحده، ضاربًا برأي ابنته عرض الحائط، فهو لم يستشرها، وبالكاد تحدث معها في هذا الأمر. فقط كان يصرخ بهستيريا ويقول:

– من المستحيل أن أقبل بزواج ابنتي، كبدي وقرة عيني برجل عربي. فابنتي الأمازيغية الحرّة من بلاد القبائل الكبرى، لن تكون إلّا من نصيب رجل قبائلي أمازيغي أصيل مثلها. حفاظًا على نقاء نسل العائلة.

حاول ابني بكل الطرق أن يثنيه عن رأيه، لكن لم يوفق. فأنّى له ذلك، وقد كان رأس الشيخ مقران أيت حمودة صلبًا للغاية، بل أشد صلابة من الصخر. الأمر الذي جعل زاكي شاحبًا وحزينًا، مشغول البال طوال الوقت، كأنّه خارج عالم الناس. ما أفقده الشهية للطعام، ولم تعد له رغبة في أي شيء. فكلّ شيء فقد طعمه وغادرته بهجته السابقة.

واستحالت الحياة أمامه إلى بقعة مظلمة وممعنة في السواد. ما أثر على نظام حياته ككل، ففي مجال العمل، لم يعد ذلك المواظب، والشاب المتحمس المبادر، الذي يخشاه مديره حسونة قويدر خوفًا من كفاءته وشهادته العلمية، لأنّه يراه منافسا له، وأكبر مصدر تهديد على منصبه. فقد كان يتربص به الدوائر، ولم يكن أبدًا يتوقع أن تتاح

له فرصة كهذه على طبق من ذهب، كي يزيح زاكي من طريقه. هذا المدير الذي جعلته الصدف يترأس الوكالة، والذي لم يدخل الجامعة يوما. لكن بحكم عضويته في المكتب الولائي لحزب الأفالان، وصلاته بالجهات النافذة، التي سهلت تسلقه إلى هرم الوكالة.

فكر المدير من قبل في استيعابه، من خلال استدراجه للانضمام معهم كمنسق في لجان مساندة ترشح الرئيس للعهدة الثالثة لكنّ زاكي رفض العرض. بادره مرة أخرى باقتراح أن يترأس اللجنة الإعلامية في المداومة الانتخابية لفخامة الرئيس، لكنه أصر على موقفه الأول، ومن هنا ثارت ثائرة ربّ عمله، وتأكد بأن لا جدوى من استعمال الترغيب والأسلوب الليّن مع هكذا بشر. قرر أن يرجع إلى أسلوبه القديم، لكن بطريقة مختلفة تتطلب نفسًا طويلا لضمان الفعالية.

أدرك أن الأمر يتطلب الصبر الجميل، من هنا بدأ يتربص به الدوائر قصد توريطه، وبالتالي يتخلص من خطره المحتمل، ويكون بذلك قد ارتاح من أكبر مصدر إزعاج يقض مضجعه. ومذ ذلك الحين، لم يكتف بما ينقله له العسس والحراس من موظفي وموظفات الوكالة، الذين كلفهم بتعقب ونقل كل أخبار زاكي وكل حركاته وأقواله وما يفكر به.

على الرغم من أن صدره أصبح أكثر ضيقًا على تحمل رؤية زاكي يصول ويجول في مكاتب الوكالة، إلا أنّه كان يتظاهر بالعكس. ومن حينها بدأ المدير يكتب تقاريرَ مفصلة عن مدى خطورة زاكي، ويسلمها عند نهاية كلّ أسبوع بيده إلى صديقه الجيلالي بن غرسة الضابط في مصالح الاستعلامات. يتهم ابني في أغلبها بأنّه عنصر مشوّش ومعارض لبرنامج فخامته، وأنّه يقوم بأنشطة مشبوهة داخل مكان العمل. فذات تقرير كتب: «لقد تم ضبط مجموعة نسخ من كتابي سوايدية وبن شيكو المحظورين، نسخهما زاكي في مكتبه بطابعة الشركة، وقام بتمريرهما فيما بعد على مجموعة من الموظفين».

وغيرها من التهم والتفاصيل الأخرى، التي كان لا يجد أدني صعوبة في فبركتها بنفسه أو وخزة ضمير تؤنبه. لأنّه اعتاد على الأمر أثناء الاستعمار الفرنسي لما كان يحرر تقاريرَ لقائد الشرطة ولفائدة المستعمر تشي بتحركات، ونشاطات، ومواقع المجاهدين والمناضلين. وبعد الاستقلال لما كان يرسل تقارير دورية لرؤسائه ضد كل من لا يتفق معه، ومن يعرف حقيقته أثناء الثورة. كي يزيح أيّة حجرة عثرة قد تعوق صعوده في السلم الوظيفي، أو قد تحول دون تحقيقه طموحَه ومصالحه.

امتلأ مكتب زاكي في البداية بالاستفسارات المرسلة له من ربّ عمله، عن أسباب التأخر المتكرر عن موعد العمل، والغيابات المتكررة، وعدم الالتزام بالأعمال والمهام الموكلة إليه. ثم ما لبث أن تمت إحالته أكثر من مرة على لجان تأديبية. كان المدير يفبرك أغلب قراراتها، بحكم إغراء أهم أعضائها. كما تعرض ابني لعقوبات متعددة أكثرها كانت متعلقة بخصومات في الأجر وحرمانه من منح مالية كثيرة.

الأمر الذي عقّد من حالة زاكي أكثر، وضاعف من همه وغمّه. ما جعله يفقد الاهتمام بمظهره وبهندامه، وبشعر وجهه الذي اعتاد أن يحلقه بعناية.

وما هي إلا أشهر قليلة، حتى وصلت رسالة إلى بيته تعلمه بقرار طرده من العمل. لم يستوعب الأمر، ولم يقو على مواجهته ومواجهة كل ما أصابه من قبل. فقد زاد هذا الخبر من تعاسته، وعمق من آلامه وجراحه. خاصة بعد أن سمع قبل أيّام من ذلك أن الشيخ مقران أيت حمودة وافق على خطبة تسعديت من ابن عمها ماسينيسا أيت حمودة. فلم يستوعب المسكين كيف رُفِضَ هو المهندس والموظف المحترم، وتم قبول عريس لم يتعد مستواه العلمي الإكمالي. فكيف لطبيبة على أبواب التوظيف أن تُزَوَّجْ لشخص لا يليق بها وبمستواها. الأمر ظالم وغير عادل.

فأراد أن ينسى، خصوصًا وأنّ النوم غادر جفونه في الأسابيع الأولى، ثم أصبح نومه متذبذبا وغير منتظم بعد سماعه هذا الخبر. وها هو الآن ينام بالنهار ويصحو بالليل، كطائر الليل. وازدادت وحدته وأصبح أكثر انطوائية، لأنّه فقد الثقة في جلّ من هم حوله.

دخل عالم الحانات والسهرات علّه يضفي بعض الحياة لخراب روحه، لكنه لم يفلح. وحين بدأت مدخراته المالية تنفد، تلك الأموال التي ادخرها لترميم شقته وإجراء مراسيم حفل زواجه. أصبح يكتفي فقط باقتناء قارورات وعلب البيرة في كيس أسود من بار ماكسيمز، ودجاجة مشوية على الجمر من مطعم «الكوك دور» القريب. ثم يقفل راجعًا إلى بيته القريب من وسط المدينة.

مضت أشهر طويلة وهو على هذه الحال، لا يراه الناس إلّا نادرا، إما خارجًا من بيته أو عائدًا إليه. لا يطيل ويعود حاملا معه كيسه الأسود، الذي لا يظهر ما بداخله. لاحظ كل من رآه نحول جسمه، فقد خسر الكثير من الوزن، فالجلد أصبح يغطي العظم، على حد وصف أحد جيرانه في العمارة. ما جعله غارقًا في أسماله الفضفاضة.

إلى أن اتصلت بنا إدارة مستشفى ابن سينا، تعلمنا بأنّ زاكي في قسم الاستعجالات.لم يسعفني القدر وأنا أمّه (الطاوس) المحروقة عليه، وبقية أخواته وإخوته من رؤيته حيًا. فقد غادرت روحه إلى بارئها قبل وصولنا.

نزلت دمعتان حارقان من عيني، من هول ما سمعته من عمتي. وأحست بألم بارد يخترق كامل جسدي، من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي، ووجع يكاد يمزق قلبي إلى أشلاء. ما جعلني لا أقوى على الوقوف في صحن الدار، فاضطررت للجلوس على قطعة جلد وضعت كيفما اتفق، ثم تنفست بعمق، كي أستجمع قواي.

واصلت عمتي الطاوس حديثها بعيون فاضت بالدمع؛ بعد مضيِّ عام وثلاثة أشهر على رحيل ابني زاكي (رحمة الله عليه)، وأنا في

دوامة حزني عليه. دق باب بيتنا، ولما فتحت، إذ بامرأة لا أعرفها تحييني وتسلم عليَّ.

بقيت أضرب أخماسًا في أسداسٍ، محاولةً معرفة من تكون، وهل جعلني موت ابني أفقد قدرتي على تذكر الناس. لكنها بادرتني قائلة، كسرًا لحالة الذهول التي أصابتني حينها، وكأنّها أدركت ذلك الأمر:

– يا يُمَّا أنت لا تعرفينني، وهذا أول لقاء بيننا. أنا ماسيليا الأخت الكبرى لتسعديت.

لما سمعت ذلك الاسم، تسمّرت في مكاني، وضاع تفكيري في خسارة ابني وضياعه من بين يدي، وهو في كامل شبابه.

عاودتني كل تلك التفاصيل الموجعة. حتى أنّني من شدة الصدمة بقيت ممسكة بالباب المفتوح جزئيا، ولم أنتبه لدعوة المرأة الى لدخول. لذالك حاولت الاستدراك:

– تفضلي. أدخلي، لا يصح أن نتكلم أمام الباب.

لما جلسنا في قاعة استقبال الضيوف، أخبرتني الضيفة بأنّها جاءت من أجل أن تسلمني هاتف ابني زاكي.

زاد استغرابي أكثر، وغرقت في حالة من الدهشة. ثم سألتها:

– كيف وصل هاتف زاكي عندك.

– الحكاية طويلة، لكن سأرويها لك بكامل تفاصيلها، فأنت أم زاكي رحمة الله عليه، ومن حقك معرفتها.

لم أنبس ببنت شفة، بقيت مصغية للضيفة إلى أن قالت:

– اتصل بي للمرة الثانية أستاذ جامعي يدرس بكلية الاقتصاد على رقم شريحة نقال أختي تسعديت، كنت حينها لم أزل أحتفظ به شغالًا، يطلب لقائي لأمر مهم يخص أختي. وأعطاني عنوان مكتبه الخاص للمحاسبة والتدقيق في شارع الأمير عبد القادر. في الغد ذهبت إلى المكتب، وبقيت أنتظر في مكتب السكريتيرة، إلى أن

خرج الزبون الذي كان عنده. ولما دخلت لم أنتظر، سألته دون مقدمات:

– ما الأمر الذي كلمتني عنه البارحة، لم يغمض لي جفن، لقد بقيت طوال الليل أفكر، دون جدوى.

– لا تخافي، أردت فقط أن أتحرر من مسؤولية أرهقتني.

– لم أفهم قصدك، وكلامك الغامض زاد من توتري ومن مخاوفي. رجاء أخبرني بدون ألغاز.

– بعد أن اتصلت بك في المرة الأولى على هاتف أختك تسعديت، وأعلمتني أن تسعديت توفاها الله، لم أجد ما أفعله سوى طلب لقائك.

– أجل فقد تركت هاتفها شغالا، لإعلام صديقاتها وزميلاتها في العمل بوفاتها. وخصوصا من يتصلن بها. لأنّها ابتدأت العمل فقط قبل وفاتها بثلاثة أشهر كطبيبة في مستشفى إبن رشد.

فتح الأستاذ درج مكتبه، وأخرج منه هاتفا نقالًا من نوع نوكيا N70. ثم سلمني إياه، سألته:

– ما هذا الهاتف؟

– هذا هو سبب اتصالي بك.

– كيف، لم أفهم؟

– أنا لا أعرفك ولا أعرف أختك ولا أعرف صاحب الهاتف.

– يا سيدي الكريم، الأمر يتجاوز طاقتي، ولم أعد قادرة على فهم كلامك الذي لا يقبله العقل ولا المنطق. مع احترامي لمكانتك ودرجتك.

– أعرف ذلك. لكن من فضلك لا تقاطعيني، حتى أكمل.

ثم أردف الرجل قائلا:

– بعد أن فتحت درج مكتبي، عادت بي الذاكرة إلى حكاية مضى عليها زمن طويل. على الرغم من أنّني احتفظت بها في بئر أسراري

ولم أبح بها سوى لصديقي المقرب جدًا عادل معنصري، إلّا أنّني لم أتخفف من ثقل وطأتها على نفسي. فكلما استرجعت شريط أحداثها، كنت أضيع في تعاريج المجهول الذي لا تبدده تساؤلاتي المتكررة، إلى أن ينتهي بي المطاف إلى الدخول في حالة من الحيرة الممزوجة بالحزن والألم.

ذات يوم ماطر، وبينما كنت أصعد درج بناية في وسط المدينة، سمعت صوت ارتطام شيء بالأرضية. لما صعدت إلى الطابق الثالث، من هول ما رأيت هرعت بكل ما أملك من سرعة نحو شاب يتخبط جسده وتكاد عيناه تخرج من محجريهما. وبحركة لا إرادية اتصلت بالإسعاف والحماية المدنية.

اقتربت من الشاب وقلبي ينبض بشدة ويداي ترتجفان، لما رآني بدأ يقوم بحركات وإشارات لم أفهمها وبالكاد كان جسده يقوى على الاستجابة لتلك الحركات. بعد مضي وقت معين أدركت أنّه يشير إلى جيب معطفه، أدخلت يدي فإذ بي ألمس هاتفًا نقالًا، حاولت أن أناوله هاتفه النقال لكن عبثًا لم أستطع. فجأة وبجهد كبير أمسك يدي بكلتا يديه موحيا لي بعينيه المتعبتين أن أحتفظ بالهاتف.

تنقلت في سيارة الإسعاف معه إلى المستشفى، وقبل حضور أهله لفظ أنفاسه الأخيرة مسلما روحه إلى بارئها.

اعترتني حينها حالة يصعب وصفها.

لما رجعت إلى العمل وضعت ذلك الهاتف في درج مكتبي، وأغلقته بالمفتاح.

طيلة أشهر متتالية لم أقو على فتح ذلك الدرج. جاء يوم فتحت فيه الدرج وأخذت أقلب في الأسماء والأرقام على هاتف ذلك الشاب. تفاجأت بمجموعة من الرسائل بينه وبين شخص آخر. وقعت عيني على آخر مجموعة من تلك الرسائل، سأنقلها لك بأمانة دون حذف أو تعديل:

– نموت عليك/ لست بخير/ في داخلي بركان: هوى وضياع/ يقتلني الوجد. (كتب ذلك الشاب).

– صباح الخير/ معا سيكون للموت طعم آخر. (الرد الذي وصله منها).

– أحبكِ حد الجنون/ لو يحدث لكِ شيء سأصاب بالجنون/ وجنون حُبكِ أهون علي من جنون بعدكِ/ أنتِ البداية وأنتِ النهاية..

– أحبكَ ولا اقدر على بعدنا/ قدرنا أن نذوب/ تلك هي البداية والنهاية/ أشتاقُكَ..

– يمزق الشوق حشاي/ أواه كم هو عذب/اااااه كم هو معذب.. (كتب لها).

– قطعتان من سكر الجنة تشفي هذا الشوق وتزيده .....و..... أبدية. (ردت عليه).

– لما أقبّل شفتي حنينك/ أدخل في حالة وجد أبدية.. (كتب لها).

– نحن الحنين ونحن الشوق واللهفة/ مقام النبوة في هذا العشق. (ردها على رسالته).

– على هذه الأرض لن يفهمنا أحد/ لنا الله.. (ما كتبه لها).

– لنا الله/ نعم في البدء وفي النهاية. (ردها)

– قلبي ينفطر/ تكاد عيني تفيض/ وأرى روحي تعانق روحك/ ثم تتحرر وتحلق بعيدا بعيدا.. (كتب الشاب)

– هو الشوق يبرح بروحين تتوقان للعناق. (رسالة ردها).

انتهت الرسائل.

لم أدر ما أصابني.. أول فكرة انتابتني هي الاتصال على الرقم المكتوب أمامي، ومن ثم إعطاء صاحبته هاتف ذلك الشاب (رحمة الله عليه). كي أتخفف من مسؤوليته ومن ثقله.

– ألو/ أهلا هل أنت فلانة....

– لا أنا أختها

- رجاء أحتاجها في أمر مهم
- توفاها الأجل منذ أيام
- لا لا ..ماذا تقولين: كيف ماتت؟
- عند سماع خبر وصلها عبر اتصال صديقة..
- أي خبر..؟
- لحد الساعة لم تقل صديقتها لنا شيئا..

13

أيقنت أنني دنوت من الهدف، بعدما لفت انتباهي لافتة زرقاء باهتة على يمين الطريق، كُتب عليها باللغة العربية من أعلى والفرنسية من أسفلها: «بلدية شطايبي ترحب بكم». مدينة صغيرة بناياتها بسيطة، تحيط بها الخضرة والجبال الكثيفة الأشجار المطلة على شريط ساحلي مدهش. للوصول إليها مررنا بالعديد من الدوائر والبلديات، الأمر الذي استغرق بعض الوقت. هواؤها منعش ومريحة من ضوضاء المدن وقيظ فصل الصيف الرطب. يقصدها الكثير من السياح للتخييم والاستجمام والاستمتاع بالمناظر الطبيعة الخلابة وبشطآنها الصخرية والرملية المتعددة. حيث حازت على أجمل منظر غروب شمس عالميا.

لم يتطلب الأمر وقتًا طويلًا كي أجد ضالتي؛ فبعد وصولي إلى المرفأ، الذي تحيط به السفن والمراكب كنياشين شرف على صدره المثقل بحكايات الصيادين وشجنهم. السفن المتواجدة هنا أغلبها خشبية صنعت في ورشات قريبة. يظهر بعض الرجال منهمكين في تفريغ حمولة مركب رسا حديثا، مشكلين سلسلة بشرية، تتدفق عبرها الصناديق الخشبية بين سواعدهم بتناغم وتذاؤب كبيرين. هناك رجل واقف ويداه في جيب سرواله، يحرك إصبع إبهامه الظاهر لا إراديا، وبطرف بصره يراقب حركتهم، يبدو أنه التاجر الذي اشترى صناديق السمك قبل أن يرسو المركب على المرفأ. فقد أضحى السمك يشترى في البحر، التفاوض على السعر والاتفاق على كل تفاصيل صفقة البيع

يتم بالهاتف النقال في عرض البحر. وفي مساحة واسعة يفرش بحارة شباكهم وهم مقرفصون ومنكبون، يرقعون بأناملهم وبخيوط الصبر والجلد ندوب وثقوب بحر، أضحى شحيحا وقلّ عطاؤه مقارنة بما مضى من سنين أعمارهم، التي أفنوها في مخالطته ومقارعة تقلباته وجنونه. تعلو جباهم تجاعيد الدهر، وتشبه سحناتهم المطمئنة الراضية لوحة لونتها الشمس ذات صيف قائظ بريشة أشعتها الحارقة.

الحرية، بونة، هيبون، السلام، سارة، حياة، نادية، الفجر... كلّها أسماء كُتبت على ظهر السفن الراسية. السفن هنا لها تواريخ وأسماء، وكينونة. هؤلاء البحارة نفخوا في روح تلك المجسمات الخشبية الميتة، ومنحوا لها حيوات. يموتون وتبقى سفنهم ومراكبهم مخلدة لذكراهم في قلوب من أحبوهم أو عرفوهم.

اقتربت من أحدهم سائلًا عن حسان رايس، فقد سبق وأخبرتني عمتي الطَّاوُسْ أنّ زاكي فيما مضى كان يقضي نهاية الأسبوع في الصيد مع صديقه حسان على متن مركب والده. وبما أن هناك عائلة تحمل لقب زهري في تكوش (شطايبي)، ربطت بين الأمرين، وفكرت في أن يكون سليم صديقا مشتركا بينهما.

أرشدني ذلك الرجل إلى مقهى الحواتة، الذي يقع على بعد أمتار قليلة فقط في زاوية مهملة. في المقهى المتواضع يجلس بعض الرجال يرتشفون قهوتهم، وهناك من يضرب بقبضة يده على الطاولة بهستيريا مبالغ فيها بسبب انغماسه في لعبة الورق أو لعبة الديمينو.

لمحت النادل وسط سحب الدخان التي ينفثها رواد المقهى بتلذذ واشتهاء، ووجع في أحيان أخرى، من أفواههم التي خربها السوس، أو من أنوفهم المزكومة. هو كهل هزيل يتحرك بتثاقل. يرتدي مئزرا بلا أزرار وبجيوب ممزقة، يكاد يفقد لونه من مقاومته للزمن وللغسيل. غزا الشيب جزءا كبيرًا من شعر رأسه، ويظهر أنفه المكسور غارقًا في شاربه الكث.

توجهت مباشرة نحوه، أخبرني أن حسان لم يظهر هنا من فترة. لقد أجر مركبه لشخص آخر.

مررت ببعض المنازل والعمارات الشاحبة، والمساكن نصف المكتملة البناء التي تجرح العين. الفيلات المزروعة هنا وهناك تطل بوجهها الحائر على زرقة البحر المختلطة بلون السماء الملبدة وبخضرة الطبيعة الموحشة في الفصول الباردة. توقفت أمام عمارة خرافية متهالكة لا لون لها، من تزاحم الكتابات والخربشات العشوائية والرسومات غير المتجانسة التي طبعها على واجهتها مراهقون وعشاق ومناوبو مقرات الأحزاب السياسية في الحملات الانتخابية الكرنفالية؛ ممنوع رمي الفضلات هنا، أيمن زائد سعاد يساوي قلبا يخرقه سهم، الأفالان: لي تعرفوا خير من لي ما تعرفوش، الإسلام هو الحل، عمار النقش، وغيرها من الكتابات الأخرى البذيئة التي تخدش حياء العائلات المحافظة.

في الأثناء انتبهت لسيل من السِّباب والشتم متدفق من صرخات وعراك مجموعة أطفال، سرعان ما توقف انهماره، وعادوا من جديد إلى الجري خلف كرة بلاستيكية،كأنهم وسط ساحة حرب يغطيها التراب والحصى، وبضع أكياس من القمامة ممزقة ومتفرقة في الأنحاء. اقتربت من حارس المرمى الذي يقبع حافي القدمين وسط حجرين. وضعت في يده مائة دينار، وطلبت منه أن ينادي على حسان رايس. صعد الدم إلى وجنتيه المترهلتين من شدة الغبطة، ولم ينبس ببنت شفة سوى أنه تخلى عن الثغر الذي كان يرابط حوله، وانطلق كالسهم مخترقًا مدخل العمارة.

كنت من حين لآخر أنظر إلى ساعة يدي، حتى صافحني شاب أربعيني يرتدي بذلة رياضية مقلدة الصنع، ويدوس بعقبه على حذاء يبدو أنه أقل من مقاسه. يظهر على يده علامة حرق وشم من حرفين. ودون أدنى مقدمات خاطبني قائلا:

– هل لي أن أعرف سبب مجيئك؟! أظنّ أنّه لم يسبق لنا وأن التقينا، إن لم تخني الذاكرة.

– معذرة.. أنا ابن خال زاكي يوسف خوجة صديقك. وأحتاجك في خدمة بسيطة، أكون ممتنا لك لو ساعدتني.

– زاكي أَصْحَيْبي، رجل تَعْ الصَّح. ربي يرحمو ويوسع عليه. كانت أيّام لا تتكرر.

حاول جاهدًا أن يتغلب على صوته المختنق، لكن دمعة خذلته. أدار رأسه ومسح عينيه بحركة واحدة. ثم اصطنع التماسك، وواصل:

– تعرف أن وُجودي في مثل هذا الوقت في البيت بمثابة معجزة. عادة ما أكون في وسط المدينة بالقرب من سوق الحطاب؛ أعمل بائعًا متجولا على طاولة خضار أو فواكه حسبما تقتضيه ظروف السوق وطلبات الزبائن. قبل يومين أنهيت شراكتي مع الهاشمي، فقد ضقت ذرعًا بخبثه وخداعه؛ اكتشفت أنّه تلاعب بالميزان. وقد كانت القطرة التي أفاضت الكأس؛ جاءني زبون غاضب، أخبرني أنه أرتاب بسبب خفة كيس الفواكه، ما أضطره لإعادة وزن البرتقال والموز عند محل المواد الغذائية القريب من مسكنه. تفاجأ المسكين من نقص أكثر من ثُلث الوزن. لا يهم. على كُلٍ أنا في الخدمة، تفضّل كلي استماع.

– هل تعرف سليم زهري؟

– أجل قبل أن يحرڤ كان لا يفارقنا أنا وزاكي. ومن حين لآخر كنا نخيِّم في شاطئ الصَّابَل دُور الحجري أو في الغابة. تقريبا كنا شلة واحدة، لنا عالمنا الخاص وأسرارنا وحماقاتنا المشتركة.

– هل لك أن ترشدني إلى بيت عائلته؟

– عن طيب خاطر. انتظرني فقط ألبس حذائي، وأصطحبك إلى مسكن عمتي لويزة. فهي تقيم منذ سنوات عند والدها الحاج الصادق علي راشدي. المكان لا يبعد كثيرًا من هنا.

وصلنا إلى بيت أرضي أمامه رصيف وشجرة برتقال. طرق حسان بقبضة يده الباب الخشبي، طلّ علينا من النافذة شيخ قوي البنية يبدو عليه الوقار. لو لا بياض شعره، لقلت أنه في ريعان شبابه.

– من أنتما؟

تكلم حسان:

– نحن صديقا سليم.

– خير إن شاء الله يا ولدي. انتظرا.

أغلق النافذة، وبعد لحظات فتح الباب وطلب منا الدخول.

منذ أن جلست على القاعدة الأسفنجية للكرسي الخشبي المغلفة بالجلد، وأنا متوتر، لا أعرف من أين أبدأ كلامي ومن أين أنهيه. وبتُّ عاجزًا أمام نظرات عمي الصادق جدّ سليم. كأنّني محاصر. فهمت أنّ الخبر لم يصلهم بعد، وأن لا بد من إعلامهم. فالمصيبة تبدأ كبيرة وتنتهي صغيرة، هكذا هي سنن الحياة. لذلك قررت أن أبدأ من الأخير.

– عمي الصادق أنت رجل مجرب خبرت شؤون الدنيا وأحوالها، وحاج مؤمن بقضاء الله وقدره.

لم أكمل حتى بادرني:

– حفيدي توفاه الله. الله أكبر.

عض الشيخ على شفتيه وضرب بكفه على جبهته، ثم تنهد بعمق، حتى خفنا عليه أنا وحسان من أثر الصدمة غير المتوقعة. فجأة تعالى الصياح والبكاء من الغرفة المقابلة، ودخلت علينا امرأة أخفى جمالها عمرها. ضغطت على يدي راكعة أمام الكرسي الذي أجلس عليه، ولم تتوقف عن النحيب والسؤال عن ابنها وظروف موته. كما انتبهت إلى ظل شخص مرتجف خلف ستار باب الغرفة يسترق السمع. كان حسان بدوره مشدوها وملامحه لا تخفي أثر صدمته بالخبر، لكنّه من هول فاجعة أم سليم نسي مصابه الجلل، فهو خسر أعز صديقتين على قلبه دفعة واحدة. كبح المسكين حزنه بمشقة وحبس دموعه،

ومن حين لآخر كان يربت على كتف العمة لويزة محاولًا التخفيف عنها ومواساتها بكل ما أسعفته اللّغة من كلمات. أما أنا فقد غرقت في دوامة لا أرى مخرجا لها.

هل كتب على أهل هذه الأرض الشقاء؟

ماذا فعلوا حتى يستحقوا كل هذا الألم والبؤس؟

هل أكلوا من الشجرة التي نهى الله أدم عن قربها حتى أخرجوا من الجنّة وقذف بهم إلى جحيم الأرض؟

هل أغضبوا رب السموات والأرض حتى يلحقهم كل هذا الجزاء؟

هل لعنتهم الملائكة؟

هل حلت عليهم لعنة الصالحين؟

هل هناك خطيئة يمكن أن تهوي بصاحبها إلى هذا الدرك الأسفل من العذاب والقهر؟

ماذا فعلوا حتى يكتووا بنار المرارة والشقاء الدهر كله؟

هل سلط الله عليهم أسوأهم حتى يذيقهم الصاع صاعين؟

ألا يستحقون أن يعيشوا بسلام كغيرهم من شعوب الأرض الأخرى؟

ألا يحق لهم أن يتمتعوا بالكرامة والآدمية؟

هل قُذف بهم في واد سحيق لا قرار له؟

دخلت والدة الشاب في موجات هذيان عاصف، تغيب عن الوعي تارةً ثم تعود طورًا آخر. خارت قواها وضاع أملها المرتقب، كالغريق الخائر القوى الذي يستلم لقدره، عندما يحيط به الماء من كل الجهات، ولا يرى في الأفق أي شاطئ قريب أو أي قشة قد تكون طوقًا للنجاة. لا شيء هدأ من روعها.

المسكينة بقيت تتنهد من قلب كليم. أما أنا فكانت الأرض تدور بي، وبالكاد كنت مدركًا لكل ما تتلفظ به العمة لويزة، أحاول عبثًا أن أصيخ السمع، لكن ذهني المشوّش يخذلني كلّ مرة. كنت أسبح

في فراغ مهول. إلى أن انتصبت واقفًا لما التقطت أذناي كلمات عابرة تلفظت بها والدة سليم:

– ألم تكفيني ثلاث عشرة سنة من انقطاع أخبار والدك عبد المجيد؟ الجمرة التي أتجرعها صباح مساء، حتى يكوى قلبي فيك يا فلذة كبدي. الزوج مفقود والابن ضاع من دون عودة. أيّ حظ وأيّ قدر هذا؟ وأيّ عين حسودة أصابتني؟ يا ليتني مِتُّ قبل سماع خبر ابني. لا شيء يعوضني خسارتكما.

قطبت حاجبي وفتحت عيني على آخرهما من هول ما سمعت، كنت مصعوقًا من شدة الدهشة والصدمة.

هل أنّ الأمر لا يعدو أن يكون مجردة مصادفة طبيعية؟

أم أنّه مجرد تشابه في الأسماء يحدث في كل زمان ومكان؟

أم أنّ كلّ شيء من ترتيب القدر حتى أصل بنفسي إلى هذه اللحظة وأقف على الحقيقة؟

كيف لي أن أتحمّل وقع المفاجأة وأتقبل الحقيقة المرة كالعلقم؟

من قُتل إذًا من لحمي ودمي، والجثة العالقة في مستشفى شارلوروا هي جثة أخي.

كيف لي أن أتقبل الأمر؟

لماذا لم يخبرنا أبي أنّه ترك خلفه أسرة في الجزائر؟

لا أتذكر أنّه كان يتردد على البلد، ما أذكره هو أنّه زار البلد مرة أو مرتين بعد الاستقلال. من عادتي أن أضع الإصبع على الجرح، لا أحب اللّف والدوران والكلام الكثير. لذلك قطعت كلماتي نواح العمة لويزة، ولفتت انتباه الشيخ المطأطئ الرأس نحوي، حتى حسان صوب نظره إلي.

– أعرف أن ما سأقوله سيكون صادما لكم جميعًا، وأنا من ضمنكم. عبد المجيد يكون أبي. والآن فقط عرفت أن سليم أخي.

اندهش الجميع فاغري أفواههم. وبقوا لحظة زمن متصلبين في أماكنهم بدون أدنى حركة، كأنّهم تماثيل يقف على رؤوسها الطير. إلى أن أذابت كلمات العمة لويزة بعضا من حيرتهم:

– إذا كنت صادقا فيما قلته، فلماذا لم يأت معك عبد المجيد؟

– أبي يرقد مطمئنًا في قبره. توفاه الله قبل ثلاث عشرة سنة.

لم تجد العمة لويزة من معين حتى تذرف المزيد من الدمع. فقد نشفت مقلتاها من شدة بكائها على سليم. غير أن كيانها تزعزع وجسدها ارتجف كأنّها تلقت طعنة غادرة أخرى. ثم أردفت قائلة:

– عبد المجيد عشت معه أقل من تسعة أشهر منذ زواجي به في نهاية عام 1961. كان يتصل بنا هاتفيا في الشهر مرة واحدة يطمئن على أخبار سليم وفايزة. وكان يرسل لنا كل شهر حوالة بنكية نتدبر بها أمرنا. لكن انقطع فجأة تواصله معنا بدون سابق إنذار، ولم نعد نتلقى اتصالاته أو تصلنا حوالاته المالية. حتى أنّه لم يعلم بخبر حرقة سليم إلى سردينيا. لكن فهمت الآن سبب انقطاعه كنت مدركة أنّه لن يتخل عني أنا والأولاد. لكن ما حيرني إخفاؤه أمر زواجه في فرنسا. كنت سأتقبل الأمر لو أخبرني. فكيف لرجل يكدّ ويتعب في ارض الغربة، ولا امرأة تعينه؟ لم يكن مجبرًا على إخفاء سر زواجه عني.

– إذا كان أبي قد تزوّج بك قبل أن يرحل إلى فرنسا فكيف أن سليم يصغرني في السن؟

– والدك تركني حامل بفايزة قبل أن يغادر في عام 1962. وقد زارني بعدها كما سبق وأخبرتك مرتين في نهاية عام 1978 وفي ربيع عام 1988 وجد سليم قد بلغ تسع سنوات. أذكر تلك التواريخ بدقة ولازالت مرسومة في ذهني بكل تفاصيلها كالوشم. خصوصًا زيارته الأولى في شهر ديسمبر 1978؛ فقد وصل عبد المجيد إلى تكوش بعد مشقة كبيرة (كما حكى لي). إذ كانت زيارته ذات عشية باردة من شهر ديسمبر، قبل اثنتين وثلاثين سنة ونيف. فلما وصل

من فرنسا إلى العاصمة عاش ظرفًا خاصًا، إذ خرج الناس حينذاك من بيوتهم على بكرة أبيهم، كان الخبر صادما ويتجاوز قدرتهم على التحمل. حتى الصحفي الذي قرأ الخبر على مسامعنا في التلفاز، كان يرتجف ولا يقوى على الإمساك بالورقة، إذ كادت أن تسقط من بين يديه أكثر من مرة. صدمة كبيرة في أوساط الناس، لا أحد يكاد يصدق ما سمع، انخرط الجميع في حركة بكاء ولطم، حالة من الضياع ومشاعر الفقدان انتابت الناس، كأنهم في غيبوبة أو في حالة من فقدان الوعي. لا يعرفون ما يفعلون، كل ما يقومون به هو البكاء بألم وحسرة، حتى ملامحهم كادت أن تضيع من هول الفاجعة التي أصابتهم.

كأنّ العمة لويزة نسيت مصابها، وانخرطت بمتعة في سرد التفاصيل التي رافقت زيارة أبي الأولى إلى الجزائر. واصلت كلامها وكلنا أذان صاغية:

ابتداءً من ذلك اليوم عمَّ الحزن البلد بأكمله. نُكست الأعلام الوطنية من فوق كل المقرات والهيئات الرسمية، وأوقف بث كل البرامج من القناة الرسمية الوحيدة، وعلا صوت ترتيل القرآن، المنبعث من البيوت. كل الوجوه شاحبة وصفراء، كأنّ الدم نفد منها أو لا ينفذ إليها تدفقه. حالة من الهلع والصدمة عمت الشوارع وجلّ الأماكن، حتى صراخ الأطفال ومرحهم اختفى ولم يعد له أدنى أثر.

عرف عبد المجيد الخبر لما سمع أحدهم يصرخ وسط الجموع «الملهم مات.. العظيم رحل..»، انخرط بعضهم في حالة بكاء هستيرية، بينما البقية كانت الدموع الحارقة تتدفق من مقلتيهم كالأنهار، ولا أحد منهم يقوى على وضع حدٍ لها. الإحساس باليتم كان طاغيًا على نفوس الحضور، حتى الأحياء والشوارع والمدن والقرى أضحت بدورها يتيمة، كأنّ الموت دب في شراييننا.

لم يكن بإمكان والدك حينها الصبر لوقت أطول داخل سيارة الأجرة، التي تتحرك قليلا ثم لا تلبث أن تتوقف مجددًا، بسبب الزحام

الشديد في الشارع وتدافع النّاس، حتى الهرب إلى الطرق الفرعية لم يعد ممكنًا، فكلّما هَمَّ السائق بالدخول إلى شارع فرعي أو جانبي إلّا ووجده مملوءا على آخره.

أخبرني عبد المجيد أنّه لم يتمالك نفسه، حتى فتح باب السيارة بحركة لا إرادية، ثم خرج مهرولا بعدما دفع للسائق الثمن. وجد صعوبة كبيرة في تخطي الجموع الغفيرة التي أمامه، فكلما حاول التقدم اصطدم بموجة كبيرة منهم، حركة الناس لا تكاد تتوقف.

بمشقة كبيرة وصل إلى محطة القطار، تجاوز الشرطيين اللذين يقفان عند المدخل وهو في حالة يرثى لها، فقد نال منه التعب والإرهاق. لما دخل وجد قاعة الاستقبال قد ضاقت بالمسافرين. حاول أن يصل إلى القابض كي يحجز تذكرته، ولأنّه كان مستعجلا، اعتذر (كما أخبرني) بخجل كبير لمن هم قبله في الطابور، حتى كاد صوته يخذله لأنّه لم يعتد على هذا السلوك من قبل، إطلاقا. أنا أعرفه جيدا وأعرف عزة نفسه. التي كانت سببًا وراء تركه البلد بما حمل.

كان وجه القابض شاحبًا بعض الشيء، فلم يخف وجهه الحليق بعناية وقميصه المكوي باهتمام كبيرين ملامح الامتعاض. بادره والدك قائلا:

– تذكرة إلى مدينة عنابة من فضلك.

ردَّ بدون حتى أن يرفع بصره من على الأوراق التي أمامه:

– للأسف القطار المتجه إلى عنابة لا يعمل اليوم، بسبب عطل مفاجئ.

أدار عبد المجيد وجهه، ولم ينبس ببنت كلمة، مشى مسرعًا لا يلوي خلفه، كي لا ينفجر في وجهه. عاد أدراجه بمشقة كبيرة إلى محطة السيارات وبعد طول انتظار عثر على سيارة أجرة ذاهبة إلى عنابة.

فجأة نطق الحاج الصادق وقاطعها غاضبًا:

– من نصف قرن والبلد مخطوف. أخذوا السلطة عنوة من الحكومة الانتقالية التي كان يترأسها بن يوسف بن خدة. استشهد في الثورة فقط مئات الآلاف من الرجال العظماء (أكثر من مليون ونصف)، ومن بقي من المجاهدين الشرفاء تم تغييبهم وتحيدهم، وتصفية من تمرّد منهم. هم سبب كل مصائبنا. الخطب الرنانة والشعارات الجوفاء لم تتغير، وتقاسم الريع باسم الشرعية الثورية مازال مستمرًا إلى يومنا هذا. أبناؤنا يرضون بأن يأكلهم الحوت ولا يرضون البقاء في بلد لم يعد فيه شيء يصلح للعيش. شبابنا يضيع، والشيوخ متشبثون بمواقع الحكم الحساسة. لا نحتاج منهم إلّا أن يتركونا وشأننا. تعرف أنّ الرجل الذي قرأ التأبينية والذي كان وزيرًا في السبعينيات هو من يرأس الآن!

اعتذر حسان مني وأستأذن للانصراف. وقبل أن يغادر كتب لي رقم هاتفه على ظهر ورقة مزقها من كناش صغير يحمله في جيبه. ثم أخبرني أن لا أتردد في الاتصال به وقتما أشاء. ما أن خرج حسان حتى نادت العمة لويزة على فايزة. لحظة دخولها اعتراني شعور لا يوصف. فمن يصدق أنّ بعد كلّ هذا العمر أكتشف أنّ لي أختًا بكلّ هذا الجمال والرقة، يا له من موقف أعجز عن التحكم فيه. طلبت منها أمها نزع غطاء رأسها لأنّ الشاب الجاثم أمامها هو أخوها.

لحظة احتضاني لفايزة رعش قلبي وارتفع نبضه. ثم أقشعر بدني من أخمص قدمي إلى قمة رأسي، فقد شممت فيها رائحة أبي التي لا أخطئها أبدًا. حينها أحسست بشعاع غير مرئي يدفئ روحي الباردة، ويسري نوره في كامل زواياها المظلمة. أخيرًا شعرت بجذوة الحياة، وبحركة أطرافي من جديد، وبالدم يسري في عروقي. كياني المهدود من شدّة الصدمات المتتابعة الواحدة تلو الأخرى، ينبعث من تحت رماد كل هذا الشقاء الذي وقفت عليه مذ دخلت هذا البلد. ها أنا أستعيدني وأقبض على ما يربطني بهذه الأرض.

أنـجـز طبعــه على مطابــع
باتنـــة – chihab print –